

روايات عبر



مَارِي وَيَنرَلِي

السِّرُّ الدَّفِين



www.elromancia.com

مَرْمُورِيَّة

السِّرّ الدفين

«الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون»...
ينطبق هذا المثل تماماً على قصة فانيسا التي اعتقدت ان جدها
كان السبب في تعاسة والدها الراحل. ولم يكن هناك عليها
سوى ان تذهب متكررة في قناع فتاة استجابت لاعلان يطلب
فيه جدها من يرتب مكتبته المبعثرة...
غير ان فانيسا تلتقي كال غرين ضيف جدها وصديقه،
وتكتشف بين الصحف القديمة سر والدها الراحل...
فتحاول الهرب... الهرب من الماضي والهرب من كال الخشن
القاسي، فهل يدور محرك سيارتها في تلك الليلة الباردة؟

السودان ٨٠٠م	اليمن ٩ ر	الكويت ٧٥٠ ف	لبنان ٧٠٠ د
U.K. £ 1	تونس ١ د	الامارات ١٠ د	مشورية ٨٠٠ د
France F 10	ليبيا ٧٠٠ د	البحرين ١ د	الأودث ٥٠٠ ف
Greece Drs 150	المغرب ٨ د	قطر ١٠ ر	المشرق ٥٠٠ ف
Cyprus P 1	مصر ٨٠٠م	عمان ١ ر	السعودية ٩ ر

١ - غريبان على الطريق

اسقطت فانيسا مكعب السكر في فنجان القهوة وراحت تراقب فقاقيع الهواء التي احدثها. لا، لم يكن هذا مجرد خيال، فالشابان اللذان يركبان الدراجة النارية كانا يراقبانها باهتمام واضح. انها معتادة على ذلك التصرف. لكن الأمر يختلف هذه المرة، فنظراتها اشعرتها بالانزعاج. المقهى كان صغيراً. وخلف الآلة الحاسبة جلست فتاتان تفهقهان وتتهامسان. والى احدى الطاولات في الزاوية جلس رجل يحتمي فنجان قهوة، الى جواره كان الشابان. انهما لتوها تناول بعض السندويشات.

نظرت فانيسا الى الرجل الذي كان مستغرقاً في الصحيفة الموجودة الى جواره اكثر من اي شيء اخر. ماذا يمكن ان تقول اذا ما ذهبت اليه لتحادثه؟ من الاكيد انه سيعتبرها مجنونة. ولكنها كانت قلقة. فما تبقى من الطريق موحش ومنعزل، هذا ما تؤكده خريطتها ويؤكدده الطريق الذي قطعته قبل قليل. هناك ما لا يقل عن ثلاثين ميلاً للوصول الى دينستون هاوس. ثلاثون ميلاً من القيادة في اراض جبلية منعزلة قبل ان تصل الى مقصدها!

التفت اليها الرجل لبرهة وكأنه احس بنظراتها، ثم نظر باتجاه الشابين واخيراً الى صحيفته. خفق قلب فانيسا بشدة. ليس هناك امل يرتجى منه. لعله اعتقد انها احبت تصرف الشابين اللذين اخذا الآن يصدران اصواتاً وكأنهما يتحدثان الى قطه، وهما يتسلمان، لقد اصبح طعم القهوة كريهاً. نهضت فجأة. حان وقت الذهاب، وكلما بكرت كلما كان افضل.

رأسها مصاب بالصداع منذ ان قطعت بيرث والطريق حتى دينستون هاوس - المنطقة المجهولة - طويلة وصعبة. ومن الأفضل لها ان تسرع في الوصول الى هناك. حملت سترتها وحقية يدها وغادرت المقهى دون ان تلتفت الى الخلف.

في الخارج، كان الطقس بارداً وبوادر غيوم ممطرة في السماء. التلال المرتفعة كانت تبدو منعزلة في ضوء المساء الخافت، وكل شيء هادئ. في موقف المقهى، شاهدت الدراجتين الناريتين وسيارة جاكوار انيقة وسيارتها الكورتينا الرمادية. جلست في مقعدها ورمت السترة وحقية اليد في المقعد المجاور... وادارت المحرك. فكرت انها ستكون سالمة اذا ما اقلعت وغادرت المكان قبل ان يخرج الشابان.

وما ان تحركت باتجاه الطريق حتى شاهدت باب المقهى يفتح، ورأت الشابين يقفان للحظة على العتبة فأعطيا ظلاً اسود انعكس على ضوء المقهى الساطع. ما زالوا يضحكان. وبحركة غريزية اغلقت ابواب سيارتها من الداخل ثم ضغطت بكامل قوتها على دواسة البنزين... فاستجابت الكورتينا على الفور.

نزلت الطريق المنحدر بأسرع ما يمكنها. ربما كانت السرعة غير كافية فالدراجات النارية قوية وسريعة جداً بالرغم من مظهرها المضحك. انطلقت الدراجتان الناريتان خلفها. واصابها شعور غريب بأن ما يحدث قد يكون عقاباً لها على الخطوة المقصودة التي جاءت لأجلها.

لكن الآن ليس وقت محاسبة الذات، المهم ان تبقى في المقدمة، متقدمة على الشابين. وكل شيء سيكون على ما يرام. الطريق الاسفلتي يمتد كشريط ضيق متعرج، وفانيسا تتابعه بترقب وسرعة، ويدها الرطبتان متمسكتان بعجلة القيادة. لم تكن انساعة عصبية، وهي تعرف كيف تسيطر على نفسها. لكن شيئاً ما كان في نظرات الشابين، اللذين لم يتجاوزا العشرين من العمر، جعلها تشعر بالخوف.

فكرة خاطفة الحت على ذهنها عن الرجل الآخر الذي كان في المقهى. لقد كان جذاباً بشكل قاس وغامض... وفجأة سمعت هدير صوت محركي الدراجتين خلفها تماماً، كان المنعطف قد حجبهما عنها. الآن اصبحا مرئيين... ويقتربان، شابان يبحثان عن المشاكل، يرتديان

سترتين جلديتين سوداوين على سروالين من الجينز. اصبحا اقرب. يا الله اين السيارة الأخرى، او اية سيارة أخرى؟

مر الأول مسرعاً فاهتزت السيارة بعنف. كان اسلوبها فعلاً. تمهل الأول حتى وصلت السيارة الى منعطف ضيق فخفف سرعته بحيث اضطرت فانيسا بدورها الى تخفيف السرعة. في حين كان الثاني خلفها يمنعها من محاولة الرجوع. أحست فانيسا برغبة جامحة في ان تطلق لسيارتها العنان، لكنها ادركت ان ذلك لن يفيد. كانت الدراجة النارية ضخمة بحيث لا تؤثر بها السيارة، والطريق لا يسمح بالتجاوز. وسرعان ما حل الصمت عندما سكنت المحركات.

تلقت حولها في محاولة يائسة للبحث عن سلاح. عبت اصابعها المحمومة في حقية يدها، فاصطدمت بجسم دائري بارد... انه عطر بخاخ، القارورة صغيرة، لكنها افضل من لا شيء. كم من الوقت سيمر قبل ان يحطما الأبواب؟

اقرب الشاب الأول من النافذة ومسح الزجاج وهو يبتسم. كانت اسنانه متأكلة ووجهه مصاباً بحب الشباب... وفي عينيه رغبات تتجاوز سنوات عمره.

«ارجوكما، اتركاني لحالي».

كلمات لا معنى لها في هذا الموقف، اطلقتها كأنها ابتهاج. عندها، ومن حيث لم تتوقع، سمعت صوت منبه سيارة طويلاً وعالياً يأتي من وراء. التفتت، ففر قلبها من شدة الارتياح. في الوقت المناسب تماماً. كانت سيارة الجاكوار التي تخص الرجل الغامض في المقهى الصغير، والسائق يطلق المنبه لأن دراجة الشاب الأول تغلق الطريق امامه. وفي اللحظة التي توجه فيها الشاب لازاحة دراجته. فتحت فانيسا الباب بسرعة. لم يكن الشاب يريد اي تدخل، بل يريد ان يفسح الطريق للجاكوار. وكان امام فانيسا ثوان معدودة. وبينما كانت تحاول الركض متجاهلة الشاب الثاني وذراعيه الممدودتين، ترحل سائق الجاكوار من سيارته واغلق الباب خلفه، وحاولت فانيسا ان تهدئ قدميها المرتجفتين عندما شاهدته متقدماً نحو سيارتها.

قالت له:

«ارجوك ساعدني... هذان الشابان...»
«اعرف. لقد شاهدتهما».

جاء صوته عميقاً. ربما كان صوتاً عذياً في الاوقات العادية، لكنه الآن غاضب ومنفعل. هذا ما لفت انتباه فانيسا للوهلة الأولى وهي تنظر اليه كوسيلة انقاذ. وسرعان ما ادركت شيئاً اعاد الخوف الى نفسها. هو شخص واحد. وهما اثنان وقويان. ولا يبدو عليه انه قوي، بالرغم من انه طويل القامة وعريض المنكبين ويمشي واثق الخطوة. لقد لاحظت هذه الامور كلها عندما دخل المقهى وهي في منتصف وجبتها، وقبل ان يبدأ الشابان تحرشاتهما. بدا عليه انه من النوع الذي يفضل تجنب المشاكل. لكنه لن يفعل ذلك الآن. او هل يفعل؟ هل يتركها وحيدة ويتابع رحلته؟ واخيراً تكلم. ازاح الشاب الأول دراجته بعيداً عن الطريق واضعاً ايهاا قرب سيارة فانيسا بحيث تستطيع الجاكوار ان تمر.
قال وهو يتسم:

«هيا ايها الفتيان، اذهبا من هنا».
وقف الشاب الأول، وهو القائد على ما يبدو، في مكانه مباعداً بين ساقيه وواضعاً يديه على خصره في وقفة تحد.
«اسمع، لقد ازحت دراجتي عن الطريق فلماذا لا تتابع رحلتك، فنحن لا نتعرض لك؟»
«كلا لكن هذه الشابة ترفض اعتراضك لطريقها، وانا شخصياً لا الومها لذلك...»
لكنه لم يستطع اكمال جملته.

استدارت فانيسا نصف التفاتة لأن الشاب الثاني كان حتى ذلك الحين صامتاً، ولذلك شاهدته أولاً فصرخت:
«انتبه»...

ولكن تحذيرها لم يكن ضرورياً. كان الشاب يحمل زجاجة في يده، ولو انها اصابته هدفها لفقد الرجل الغامض وعيه. لحسن الحظ خابت الضربة. وراقبت فانيسا باعجاب مشوب بالدهشة كيف ان الرجل استطاع ان يقبض على معصم الشاب ويلويها بشدة مع انحناء خفيفة من جسده هو. كان مذهشاً ان تراقب المعركة لأنها جرت كما لو في التصوير

السينمائي البطيء، وتشاهد وجه الشاب وقد علته الدهشة اذ سقطت الزجاجة من يده المتشنجة ثم تبعها هو في السقوط... هنا تدخل الشاب الأول وتقدم مهاجماً. وقالت فانيسا لنفسها: هذه هي النهاية. والتفتت لتبحث عن عصا او اي شيء للمساعدة.

حدث كل شيء بأسرع مما تتصور وصل الشاب الأول مسرعاً نحو الرجل الغامض رافعاً قبضة يده للوصول الى وجه خصمه وواضعاً قوته كلها في هجومه. وشاهدته فانيسا وهو يقفز من فوق الرجل الذي انحنى قليلاً الى الخلف ثم عاد ليجلس على صدر الشاب بسهولة وسرعة.
ادركت فانيسا انه يتقن رياضة الجيدو. وعرفت الفرق بين مشاهدة اللعبة على شاشة التلفزيون وبين ما جرى الآن... انه الفرق بين الرياضة والواقع.

انتهى كل شيء. نفض سائق الجاكوار الغبار عن سترته وهو ينظر باشمئزاز الى الجسدين المرميين اللذين يحاولان الوقوف على اقدامهما. ثم خاطب فانيسا قائلاً:

«اصعدني الى سيارتك وتابعي السير. سأتابعك انا بسيارتي. هيا بنا بسرعة».

لم يكن هناك مجال للكلام. اطاعته من دون ان تتفوه بكلمة وادارت محرك السيارة بيدها المرتعشة. ثم هدأت قليلاً عندما ادركت انه هو الذي يجب ان يرتجف اذا ما كان هناك سبب لذلك، وليس هي.
على بعد خمسة اميال، وبالقرب من مفترق طرق، اعطى سائق السيارة اشارة ضوئية طالباً منها التوقف، ففعلت وترجلت من سيارتها. الشيء الأول الذي يجب ان تفعله هو ان تشكره.

اقترب منها، ودون ان يفسح لها المجال سألها بلهجة آمرة:
«ما اسمك؟».

فماتت كلمات الشكر على لسانها فوراً.
«فانيسا».

بدأت كلامها. لكنها لم تستطع ان تذكر اسمها الثاني «آ... سميث».
قال بنغمة ساخرة وهو يرفع احد حاجبيه:
«يبدو انك تجهدين صعوبة في تذكر اسمك الثاني!».

لمعت عيناها بالغضب لبرهة وقالت:

«انتي مضطربة . . . كانت تجربة خفيفة».

«صحيح» وافق قائلاً: «حسناً يا آنسة سميث» مشدداً على كلمة سميث «انا لا انضحك بالسفر وحيدة في المستقبل . . . على الأقل في مثل هذه الأماكن. انت تعرفين المتاعب التي كنت ستواجهينها لو ان احداً لم يصل في الوقت المناسب؟».

ووجدت ان عرفانها له بالجميل بدأ يزول بسبب طبعه الحاد، لكنها تمسكت بالجملة الأخيرة التي نطق بها لتنتقل منها وتقول:

«نعم، وانا شاكرة لك ما فعلته من اجلي».

«عرفت في المقهى ما ينبغي ان فعله. وتبعتمكم طول الطريق مع انني لم اكن اقصد هذه الناحية اساساً».

آه، لقد بدأ يترك تأثيراً غريباً عليها. كان من النادر ان تعجز عن ايجاد الكلمات المناسبة. ومن النادر ايضاً ان تحمد رجلاً مغلقاً الى هذا الحد، كأنه لم يكن يراها على الاطلاق. كان طويل القامة بحيث سبب لها الازعاج، خاصة انها طويلة ايضاً، ولم تتعود ان تنظر الى الاعلى لتخاطب الآخرين. معه اضطرت الى ذلك. فقد كان اطول منها، عريض المنكبين، اسمر الوجه، وذا عينين لامعتين بشكل غير عادي حتى خيل اليها انها تسخران منها. لكن هذا غير معقول!

وانهى كلامه قائلاً:

«فاما ان تحضري معك رقيقة طريق او ان تتعلمي بعض الكاراتيه».

«سأتسلم وظيفتي على بعد ثلاثين ميلاً».

اجابت برد حاسم بدا لها جافاً:

«ومن الصعب والحالة هذه ان احضر معي مربيتي، اليس كذلك؟ اما بالنسبة للكاراتيه، فقد كنت اعتبر الاسكتلنديين محيين للضيوف . . . لكنني يجب ان اعيد التفكير بهذا يا سيد».

عليه ان يتقبل رأيها بالاسكتلنديين كما يشاء. بدأت اعصاب فانيسا تنوتر، وكلما اسرعت بمغادرة المكان، كان ذلك افضل لها.

«كال غرين يا آنسة سميث».

وشدد على نطق الاسم الذي يؤكد كونه اسكتلندياً.

«اليس من الأفضل لنا ان نواصل السير».

واستدارت نحو سيارتها وهي تقول:

«فالشابان . . .».

«سوف يستمران في البحث عن مفاتيح المحرك لمدة غير قصيرة بين الاشجار».

اجاب مبتسماً. ليس هناك ما يضحك، مجرد ابتسامة كشفت عن اسنان لامعة.

«وحتى لو وجداهما، فسيندمان اذا ما حاولا اللحاق بناء».

ولم يكن متبجحاً، كان يقول الحقيقة. لم تستطع فانيسا ان تمنع الكلمات:

«من الجميل ان تكون واثقاً الى هذا الحد من نفسك».

ابتسمت ايضاً وهي تدرك تأثير ابتسامتها على الرجال. انها الابتسامة التي تسحر، ولكنها لم تسحره هو.

«هذا صحيح» ونظر اليها بكبرياء. «انك ذات مزاج عصبي يا آنسة، اليس كذلك؟ ربما كنت تفضلين ان أتركها فيصيباني بالزجاجة؟»

«لم اقصد ذلك».

وبدأت تشعر بالارتباك. من يعتقد نفسه هذا الوحش المتعجرف؟ «قصدت . . .».

لكنها لم تكن متأكدة مما تقصده الآن. وانتهت كلامها بنبرة حزن:

«يبدو انك تعتقد بأنها غلطتي».

نظر اليها مجدداً. تعبير غريب جداً مر للحظة على ذلك الوجه الأسمر الجذاب:

«الم يعلمك احد بأن تغضي طرفك الساحر عندما تكونين في بعض الأماكن؟».

«ماذا؟ من الأكيد انه لم يفكر . . . وكيف تجرؤ على هذا القول؟ وماذا تقصد من ورائه؟».

وجهاها في العادة ابيض اللون وناعم بشكل يتناقض مع شعرها الأسود، اما الآن فقد احمر خداهما والتمعت عيناها البنيتان الغامقتان بشرارات الغضب.

«دعك من هذه الأقوال».

كان يتكلم بهدوء، وكأنه يخاطب طفلاً:

«لا تقولي لي انك لم تعطها نظرة تشجيع حتى ولو غير مقصودة».

ورفع يده مسترضياً عندما قال العبارة الأخيرة:

«لكنك لا تستطيعين تجنب الأمر، اليس كذلك؟ فانت مدركة لجمالك

انت كاذبة او مغفلة اذا انكرت ذلك - وكان يجب ان تعرفي انك

مستسيين المتاعب بمجرد...».

«لن اقف هنا لحظة اخرى لاستمع الى اقوالك يا سيد غرين».

صرخت بانفعال واستدارت عائدة الى سيارتها.

«لست ادري من هو الاسوأ فعلاً. وداعاً».

خيم صمت ثقيل. لم ينبس ببنت شفة ولم يحاول إيقافها. ترى ما الذي

كانت تتوقعه؟

نظرت في مرآة سيارتها تراقب الطريق خلفها وهي تنحدر بسرعة نحو

هدفها. رآته يدخل السيارة بسهولة رغم ساقيه الطويلتين. لم يكن ينظر

اليها، بل لم يكن مهتماً أبداً. زمت فانيسا شفيتها بغیظ. لقد كان شخصية

بغیضة مع انه انقذها من وضع لا تحسد عليه. ألقت نظرة اخرى قبل ان

تحجب الطريق سيارته عنها. شاهدت بصيص احتراق سيكارة من خلف

الزجاج، انقبض قلبها، هل ينتظر فعلاً حتى يتأكد من عدم وجود اية

مشاكل؟ هذا ممكن. لكن مع مواصلة السير، طغت افكار اخرى ملحة

على ذهن فانيسا. افكار حول المكان الذي تقصده والاسباب التي دفعته

للقدوم.

حدث شيء غريب جداً قبل بضعة اميال من دينستون هاوس. توقفت

للمحظة حتى تراجع خريطةها وتأكد من المنعطف الحاد الذي برز الى اليمين

والذي يقود الى طريق يبدو وكأنه ينتهي الى جبل منعزل موحش. عليها ان

تتأكد قبل ان تتابع سيرها، لئلا تجد نفسها في طريق لا يمكنها العودة منه الا

بعد اميال عديدة. خاصة ان الظلام اصبح حالكاً، والغيوم الداكنة تطبق

على الارض منذرة بالمطر الغزير.

انه طريقها بالفعل. لقد اشرت على الخريطة بعناية في مكتب المحامي

بعد تلقي التعليمات منه. لا يمكن ان تكون مخطئة، فالمنعطف الحاد هو

الدرب الذي يجب ان تسلكه. اعادت فانيسا الخريطة الى مكانها وتأكدت

من خلو الطريق من السير ثم انعطفت يمينا. ومن بعيد، لاحت بشكل غير

واضح سيارة تنهب الارض على الطريق نفسه الذي تركته فانيسا قبل

لحظات... وتساءلت فانيسا ما اذا كانت هذه السيارة هي سيارة

الجاكوار. من الممكن ذلك، لكن الامر مستبعد. ثم انشغلت عن التفكير

بذلك «الفارس الارعن» وهي تتجاوز منعطفاً حاداً ضيقاً برز امامها

فجأة... وما هي الا دقيقة حتى كانت الجاكوار وراءها.

لم يكن امام فانيسا مجال كي تفسح له الطريق لتجاوزها. فالدرب

المتعرج الضيق كان يجعلها حذرة وبطيئة. هل هو مستمر في ملاحقتها؟ ربما

يريد ان يقول لها شيئاً؟ عند المنعطف التالي، وكان هناك متسع للتجاوز،

اعطته اشارة كي يعبر. لكنه توقف، ولم يعد امامها الا التوقف.

انزلت زجاج شباك سيارتها. ترى ماذا يريد؟

«هل انت في الطريق الصحيح؟».

كان صوته عميقاً وهادئاً، وكان شيئاً لم يحصل بينها.

«نعم. اعتقدت انك تريد سؤالاً عن شيء ما. انا متوجهة الى مكان

يدعى دينستون هاوس...».

توقفت عن الكلام عندما لاحظت تعابير وجهه التي تتم عن الدهشة

والاستغراب. ماذا حدث؟ ماذا قلت له؟

«انت ذاهبة الى دينستون؟» تساءل بدهشة. «لا تقولي لي انك الانسة

التي تريد تنظيم المكتبة هناك؟ يا الهي!».

وفعلت الكلمتان الاخيرتان فعلهما. فتحت فانيسا باب سيارتها ودفعته

بقوة. ابتعد الرجل عن طريقها وهو يساعدها في امساك الباب. ترجلت

ووقفت امامه متحدية... .

«لقد سمعت ورايت ما فيه الكفاية. انا لا اعرف ماذا ومن تكون، لكن

المكان الذي اقصده لا يعينك ابداً... وان كنت انقذتني من

الشايين...».

لم يتركها تكمل كلامها. كان ينظر اليها ويسمة استغراب مشوبة

بالدهشة على شفثيه:

«هذهي من روعك»، قاطعها بصوت صخري كملامح وجهه.

«فذلك لن يفيدك معي، ولن ينفعك أيضاً...»
«أياها...»

«أريت ماذا قصدت؟ العينان تشرقطان غضباً، والوجتان محتقتان...
هدئي نفسك إيتها القطة المتوحشة وانصتي.»
احسنت فانيسا بأن صدرها يكاد ينفجر وهي تحاول ضبط نفسها امام
هذا المخلوق المجنون والمتعجرف. كم تمنى ان تصفع ذلك الوجه
القاسي!

«هذا افضل.» لم يعرف كم كانت قريبة من الصفعة... «لي كامل الحق
بسؤالك عما اذا كنت ذاهية الى دينستون، فأنا اعيش هناك حالياً.»
نظرت فانيسا اليه للحظات. هذا غير معقول؟ هذا غير معقول! وقالت
بصوت اكثر هدوءاً:

«المنطقة التي اقصدها ملك شخص يدعى السيد ماكلين، وحسب
علمي هو يقيم...»

«انه يقيم وحيداً، اجاب بنعومة. «انه يقيم وحيداً باستثناء الخدم
ومديري البيت. وانا حالياً... ضيفه.»

لم تلاحظ فانيسا في ارتباكها تردد الرجل قبل الكلمة الأخيرة. من اين
جاءت كل هذه التعقيدات؟ نظرت اليه. عليها ان تكون شديدة الخجل.
فأشياء كثيرة اخذت تحدث فجأة. يجب ان تهدأ فذلك سيعطيها وقتاً
للتفكير. لكنها ادركت انها لا تملك متسعاً من الوقت للتأمل والتفكير.
«لقد فهمت.»

وحاولت ان تضع على شفيتها ابتسامة كبيرة. اثرت الابتسامة مؤقتاً.
وعندما جاءت كلماته احسنت ان تخيلتها هي التي اوحت اليها بذلك.
«استغربت كثيراً في البداية لأن اسم الوظيفة الجديدة حسب ما اعتقد
هو» وفرك مقدمة جبينه باصبعيه وهو يحاول التذكر «اجل اسمها الأنسة
كولينز.»

وقطع كلامه مبتسماً وكأنه يقول: «والآن ما هي الحقيقة؟»
واعطتها الابتسامة الأخيرة وقتاً هي بأمر الحاجة اليه للاستعداد
والاجابة.

«هذا صحيح» قالت موافقة «عندما اخبرتك ان اسمي هو سميث،

كنت ببساطة غير راغبة باعطاء اسمي الحقيقي لشخص غريب.»
رفع احد حاجبيه وقال:

«بالطبع... بالطبع.» وازداد بصوت ناعم «انا لا الومك. هناك
نوعيات غريبة من الناس اخذت تتردد على هذه المنطقة مؤخراً.»
لكنها كانت متأكدة من انه لم يصدقها. الشيء الوحيد الذي فكرت فيه
هو: هل من الضروري ان يصدقها؟

اتاحت فانيسا لنفسها بعض الراحة كي تغلب المشكلة من كافة
جوانبها، عندما كانت تتبعه بسيارتها على الطريق الذي اخذ يضيق ويتعرج
اكثر. قاد سيارته الجاكوار بروية آخذاً بعين الاعتبار عدم معرفتها المسبقة
بالمكان. وكانت قيادته هادئة وماهرة بحيث تبعته فانيسا بثقة وارتياح.
اذن، هو ضيف في دينستون هاوس، لكن الى متى؟ احسنت بضيق.

وعاد الى ذاكرتها الحوار الذي جرى في مكتب السيد مورتون.
واتضح لها الأمور بشكل لم تكن مستعدة له بعد. هي تعرف ان عليها
التفكير في الأمر... لكن ليس الآن، ليس الآن. وألحت عليها صورة السيد
مورتون القلق وهو يقول بصوت متوتر: «لا استطيع ان اوافق على الخداع
بأي شكل من الأشكال!»

«لست اسألك الموافقة على اي شيء.»

كانت فانيسا قادرة حتى على تذكر رنة صوتها انذاك: هادئة وعملية
ومصممة على ازاحة اي اعتراض، لأنها حسنت امرها سلفاً.
«لكن الأمر يبدو لي...» ورفع السيد مورتون مجموعة اوراق، «وكانك
ذاهية الى هناك لانتحال شخصية اخرى.»

«لقد شرحت لك الوضع.»

واعطته ابتسامة طويلة. لم يكن قادراً على مقاومة مثل هذه الابتسامة.
وسمعه يسعل بارتباك، فأضافت:

«المسألة لن تستغرق طويلاً، مجرد اسبوع، ثم اخبره بالحقيقة. انها اشبه
ب... لعبة.» ورددت في سرها: «وليساعني الله على هذه الكذبة.»

لكن يجب ان لا يعرف أحد اسبابها الحقيقية، الرغبة في رؤية ذلك
الرجل العجوز الذي دمر حياة والدها. انه جدها اندرو ماكلين الذي
اتفق الألف حتى الآن من اجل العثور على الولد الوحيد لابنه المتوفي

حديثاً.

اعدتها الى الحاضر سيارة الجاكوار التي اخذت تخفف سيرها، فضغطت على الفرامل بسرعة. مر من امامهما قطيع من الماشية متجهاً الى احدى التلال. عبرت الخراف المثقلة بالصوف متباطئة عبر الطريق العام، فأسرع الرجل بسيارته وتبعته فانيسا دون تردد. نظرت في مرآة سيارتها لحظة. كانت عيناها سوداوين وواسعتين. تساءلت في نفسها: هل اخطأت من الأساس في المجيء الى هنا؟ هل كان والدها سيوافق على ما تفعل؟ لن تستطيع ان تعرف ابداً. لقد كان السيد مورتون قلقاً للغاية من خطتها. وارثكب خطأ اساسياً عندما اخبرها بأنهم طلبوا منه ايجاد شخص مناسب - رجلاً كان او امرأة - لترتيب مكتبة دينستون هاوس.

«ها قد وجدتها». أجابت فانيسا وموجة عارمة من الارتياح تجتاح جسمها:

«الا ترى؟ انا سأذهب. ستقول لهم انك وجدت شخصاً مناسباً، و...».

«وماذا سيحدث عندما تكشفين شخصيتك الحقيقية؟» قاطعها السيد مورتون بجفاء «كيف سأبدو انا آنذاك... المتأمر الشريك؟».

«كلا». وقفت فانيسا بحزم. «حذرتك اساساً، وانت تعرف جدية كلامي، من انك اذا ابلغت جدي...» ووقفت عند الكلمة الأخيرة باشمئزاز «اذا ابلغته بالعثور علي، فسوف ارحل على الفور. وتأكد من انك لن تجدني ابداً».

شعر المحامي العجوز بالحيرة. واحست هي بالأسف لوضعه. لكن الرغبة في الانتقام كانت اكثر قوة... وادركت انها ربحت... .

اصبحت الآن فانيسا كوليتز، مع قصة حياة كاملة اعدتها لنفسها اذا ما سألها احد. ستذهب لرؤية المكان حيث ولد ابوها وامضى طفولته الأولى، وسترى الرجل الذي سمعت عنه الكثير من الكلمات القاسية. ستجعله يحبها ويتعلق بها، بعد ذلك ستخبره بشخصيتها الحقيقية وتراقب تعابير وجهه... ثم ستغادر منزله ولا تعود اليه ابداً. عندها ستعرف راحة البال، لأول مرة بعد سنتين كاملتين من العذاب. فمتذ ستبين اخبرها والدها وهو على فراش الموت قصة الرجل القاسي الظالم الذي طرده لانه

اراد ان يتزوج الفتاة التي احب وليس تلك التي اختارها هو له. والآن، مات الأب والأم معاً. امها ماتت مكسورة القلب بعد قليل من وفاة زوجها. وجدها يتحمل المسؤولية كاملة... .

شاهدت الرجل الذي يقود السيارة امامها وهو يؤثر لها للاتجاه يمينا داخل طريق محفوف بالأشجار الكثيفة، فتبعته. هذا الشخص استطاع الايقاع بها عندما سألها عن اسمها فخلال ثوان معدودة نسيت الشخصية التي يجب ان تلبسها، وهذا ما يجب الا يتكرر ابداً. عليها ان تراقب كال غرين هذا الرجل الأسمر القوي الذي اعطاها انطباعاً بأنه يستطيع قراءة افكارها ايضاً.

كان الطريق ضيقاً. والأشجار العالية الكثيفة تظلل كل شيء بظلام طامغ لا يتغير. ماذا ستجد هنا؟ انها لا تملك صوراً فوتوغرافية يمكن ان تعطيها انطباعاً عن المكان. فقد ائلف ابوها كل ما يمكن ان يذكره بالماضي. وهي لا تعرف كيف سيكون مظهر جدّها، وان كانت الصورة الخيالية التي تحملها عنه لا تسر القلب. عما قريب ستعرف كل شيء، وسيتهي زمن الخيالات والتوقعات.

عبرت بوابة حديدية واسعة بيضاء اللون. القسم الأول من الطريق مرصوف بالحجارة، ثم يأتي قسم معبد بحبيبات صغيرة من الحصى. اعطت سيارة كال غرين زموراً متقطعاً، فاعتقدت فانيسا انه يؤشر لانسان ما. لكنها شاهدت مجموعة من الأرانب الصغيرة تفر من وسط الممر. انفرجت شفتاها قليلاً. على الأقل هو لا يجب دهس الحيوانات، وهذه نقطة صغيرة لصالحه. انها لم تعجب به. وهذا الشعور كان متبادلاً، فتصرفاته معها عكست هذا الأمر. لقد كان فقط، هكذا تخيلت. لم يكن من المناسب ان يكشف هويتها ويفسد خطتها، عليها ان تعامله بحذر بالغ خلال الأسابيع القليلة المقبلة، وبعد ذلك لا يعود بهم ابداً.

واخيراً شاهدت البيت. فامتلا قلبها بالحزن العميق. اذن هذا هو بيت ابيها. كان جميلاً جداً بحجارته الرمادية البارزة ونوافذه الواسعة ورواقه ذي الأعمدة الرخامية. عدة درجات تؤدي الى الباب حيث الظلام الخفيف يغطي المدخل المسقوف. وعندما وقفا امام الباب انير البيت بضوء ساطع هو مزيج من الأبيض والأزرق.

اوقفت فانيسا محرك سيارتها. ولبرهة من الزمن احست برغبة عارمة في
الحرب.

«ها بنا الى الداخل».

وفتح الرجل باب سيارتها معيداً اياها الى ارض الواقع:

«ستمطر خلال دقائق. اين حقائبك؟».

«في الصندوق».

سحبت المفاتيح من محرك السيارة وناولتها له. اخذها وتوجه الى الخلف
وفتح الصندوق وحمل حقبيتها. كانت فانيسا محتارة بين الرغبة في شكره
والانزعاج من الطريقة الباردة التي تناول فيها المفاتيح، كأنه فقد صبره معها
واصبح غير مهتم بتبرير تصرفاته. حملت سترتها وحقبية يدها، وقررت ان
تترك الأمور على علانها، على الأقل حالياً.

قادها الى المدخل عبر سلم حجري، ثم فتح باباً ضخماً.

«اهلاً بك في دينستون هاوس يا آنسة كولينز».

كان من الصعب عليها ان تعرف معنى رنة صوته، لكنها اكيدة من
غياب الترحيب الفعلي.

«شكراً لك يا سيد غرين».

قالت مبتسمة، بدأ التخفي الآن، فلقد فات اوان التراجع. وعليها ان
تستمر في خطتها مهما كلف الأمر. هزت رأسها وكأنها تطرد التعب عن
وجهها وسالت:

«ماذا علي ان افعل الآن؟».

«سأرشدك الى غرفتك أولاً فترتين اغراضك، ثم نتناول العشاء».

«ولكن اليس من الأفضل لقاء السيد ماكلين قبل ان اصعد الى
غرفتي؟».

رفع حاجبه الاسود قائلاً:

«الم اقل لك انه خارج البيت الليلة؟ سيعود ظهر غد على ما اعتقد».

وحتى ذلك الوقت ساهتم انا بوجودك».

احست بنبرة سخرية في صوته. هذا خيالها بالطبع. لكنها لم تكن
مرتاحة.

وتساءلت بنعومة:

«وماذا كان سيحدث لي لو لم اصادفك في الطريق».

«المشرفة على البيت وزوجها السيد والسيدة بانكس كانا سيهتمان

بك».

رفع حقبيتها وسار نحو السلام المنتصبة في منتصف القاعة الكبيرة.
وصلا الى ممر تغطيه النوافذ الزجاجية الملونة، وعلى الجانبين ثريات من
الذهب والعنبر. وبينما هي سائرة الى جانب الرجل، اضاء البرق النوافذ
فاحست بالخوف والغربة. لعلها ارتجفت، اذ لاحظت نظراته اليها قبل ان
تهدا.

«خائفة من العواصف؟».

سألتها بعطف. لو ان هذا العطف حقيقي! لكنه بدا مسروراً أكثر منه
قلقاً.

اجابت:

«لا ابدأ... وانت؟».

«انا اقدر البرق تقديراً عالياً، فقد شاهدت ما يمكن ان يفعله. لكنني لا
اخافه».

«ومن الصعب عليك ان تعترف حتى لو كنت تخاف» قالت فانيسا بنعومة
وطراوة: «اقصد، هل تخاف من اي شيء؟».

كانا قد وصلا الى اعلى الدرج. وعلى الجانبين ممران واسعان غطيت
ارضيتهما بالسجاد الثمين. وقف كال غرين ووضع الحقبيتين على الأرض
بحركة بطيئة مقصودة.

قال بصوت متفعل:

«علينا ان نجد اسلوباً للتعايش اذا ما كنت ستقضين وقتاً هنا. لو كنت
في مكانك لراقبت لساني جيداً، فهو سليل جداً بالنسبة الى آنسة رقيقة
مثلك».

احست وكأنه صفعها. وبصعوبة كبيرة استطاعت ان تحببه بهدوء:

«هل تهددني؟».

«ابداً... بدت عليه الدهشة. «اني ابدي ملاحظة فقط. هل ابدو
كمن يهدد امرأة؟».

كانت السخرية واضحة في صوته.

ذلك؟

«اذن اهدأي قليلاً. لن ادعك تصفعيني، واعرف انك ستفعلين ذلك اذا ما اطلقت ذراعيك. والى ان تهدأ اعصابك، ساطل ممسكاً بك.»
«اذا لم تتركني فلسوف اركلك بقدمي.»
وكانت تعني ذلك تماماً.

«جربي ذلك» اجابها بصوت ناعم وصلب، «اريدك ان تجربي ولو لمرة واحدة. واعدك بأنك بعدها لن تثوري بسرعة ابداً.»

اصابتها كلماته الباردة بما يشبه الجمود، واحست برعشة تسري في اوصالها. ماذا يمكن ان يفعل؟ وتذكرت كيف استطاع ان يواجه الشاين اللذين هاجماها... فشعرت بالخوف. ودون ان تعي خفت من توتر جسمها. فكرت انه من الأفضل عدم مقاومته كي لا تعطيه المجال لممارسة بعض ضربات الجيدو ضدها.

«هذا افضل. لقد توقفت عن المقاومة.»

خفف كال غرين قبضته عن ذراعيها واصبح وجهه اقل قسوة.

«تذكرني دائماً انك لا تستطيعين مقاتلتي، ولذلك لا تجربي!».

قالت بصوت ضعيف:

«انت مقرف. الن تطلق سراحي؟».

«هل تريدن ضربي؟».

«كلا».

اختفى الضغط. دلكت فانيسا ذراعيها حيث كانت قبضته، ونظرت الى حقيبتها. خانتها قواها في حملها. ولسبب غير معروف شعرت ان ذراعيها ضعيفتان كما لو ان عضلاتها ترفض العمل. سألت بجزع:

«ماذا فعلت بي؟ انني لا استطع...».

«لم افعل شيئاً. ما دمت انك ضعيفة الى هذا الحد، اقترح عليك تعلم بعض وسائل الدفاع عن النفس. وهكذا اذا ما هاجمك احد المتشردين في المستقبل، تستطيعين القضاء عليه.»

قالت بسخريه واضحة:

«سأذكر ان التحق باحدى مدارس تعليم الجيدو عندما اعود الى

لندن».

«لا اعرف ما فيه الكفاية حتى احكم على ذلك» ردت على هجومه بسرعة. وقالت «في الواقع لا اريد الحكم عليك. لكنك تستطيع ان تكون فظاً حتى بدون ان تحاول. فهذا ما فعلته فعلاً بعد انقاضي. فقد حاولت ان تقول انني شجعت الشاين على معاكستي.»

قاطعها بحدة:

«لم افعل ذلك. فقط اقترحت عليك ان تغضي عينيك الساحرتين عندما تكونين في مكان ما...».

ردت عليه بسرعة:

«وكأنني كنت احاول استمالتها، او اي شيء من هذا القبيل.»

كان موقفاً غريباً ان تكون هناك. هو وهي فقط في ذلك البيت الضخم. تناقش الرجل الغريب وتحاول ان تنتصر عليه ولو لمرة واحدة. تنفست بعمق لتستعيد رباطة جأشها.

ضحك وقال:

«الم نحاولي استمالتها؟».

واندفعت فانيسا اليه رافعة يدها الى ذلك الوجه البارد:

«كيف تجرؤ...».

«لم تستطع ان تكمل.»

امسكها وجدها دون جهد يذكر. نظر اليها بعينين لامعتين بينما كفاه يسكان ذراعيها بقسوة وبرودة.

«انت قطة متوحشة بالفعل»، وقال بهدوء: «ما هذه الطباع التي تحملين؟ انت تدركين انني قادر على ترويضك...».

صرخت بصوت مخنوق:

«اتركني!».

«سأتركك عندما اكون جاهزاً. اريدك ان تستمعي الي لدقيقة. فانت بين يدي الآن...».

وحاولت فانيسا ان تخلص نفسها، لكن قبضته كانت قوية للغاية. قالت وهي تتنفس بصعوبة:

«انك تؤذيني.»

كانت دون حيلة على الاطلاق. كم تكرهه الآن! كيف يتجرأ على

نظر اليها بحزم:
«لا حاجة للانتظار. يمكنك المباشرة الآن. سأكون مسروراً عندما
ادرك شخصياً».
وابتسم. ولم تعرف فانيسا كيف تتقبل كلماته وابتهامته. نظرت اليه
ببرود. قالت:
«هل اذهب الى غرفتي الآن. اريد ابدال ملابسى».

«بالطبع. من هنا الطريق».
«هل حقيقتيها وسار امامها. وفيها هي تتبعه، اخذت تفكر بالعرض
الذي قدمه لها.
لا يمكن ان تسمح له بتلقيها اي شيء.. فجأة خطرت على بالها الفكرة
التالية: سيكون الأمر مثيراً للاهتمام بالفعل. لكنها سرعان ما طردتها.

٢- في البيت الكبير

اصيبت فانيسا بصدمة قوية عندما شاهدت الغرفة المخصصة لها. لكنها
اخفت مشاعرها حتى غادر كال غرين المكان كي لا تعطيه فرصة السماتة
من دهشتها البالغة.

كانت الغرفة جميلة جداً، عالية السقف واسعة تماماً، وتطل على مقدمة
المنزل من خلال نافذتين عريضتين تكشفان الحدائق والسهول التي قطعنها
فانيسا قبل قليل. انجذبت الى احدى النافذتين لتأمل المناظر البديعة
المتتلة. وقفت صامتة امام الستائر المخملية الخضراء. الليل اصبح اكثر
حلوة، والعواصف الرعدية تزجر في البعيد... انهمر المطر غزيراً بحيث
احسست ان اخضرار الأرض انعكس على الضوء الخافت في الخارج. تركت
فانيسا النافذة لتأمل اثاث الغرفة المصنوع كله من خشب السنديان
المصقول. كان هناك مقعدان وثيران وسريرها المفروش بغطاء مزين
بالورود. وفي احدى الزوايا استقرت ساعة حائط اثرية والى جانبها طاولة
عليها مزهرية... وكلها قديمة وغالية الثمن. ووجدت حتى جهاز تلفزيون
احتل الزاوية المجاورة للنافذة.

اثاث الغرفة يدل على ذوق راق واهتمام ملحوظ. فجأة شعرت ببعض
الذنب، لكنها تخلصت منه بسرعة. من غير المناسب ان تشعر بذلك ولم
يمض على وجودها في المنزل اكثر من خمس دقائق. لقد اتخذت قرارها
نهائياً، وعليها ان تستمر في مهمتها... من أجل ابها.

غطت وجهها براحتيها عندما احسست بألم حاد. انه الألم الناشئ عن
ادراكها بأنها مهما فعلت، فان كل شيء قد فات الآن. تنفست بعمق

وانجھت الى مرآة تغطي خزانة بالقرب من السرير. فتحت الخزانة، فاذا بها امام حمام متكامل. لا شك ان كال غرين تعمّد عدم الاشارة الى الحمام من اجل دفعها الى سؤاله وبالتالي اخراجها. لكنها اسقطت هذه الفكرة من رأسها فوراً.

كان الحمام بمثل جمال غرفة النوم. المرايا تغطي معظم الجدران، ما عدا النافذة التي تطل على غابات كثيفة. تلفتت فانيسا حولها بارتياح. كم كان جميلاً لو انها فقط. ! يجب ان لا تفكر بهذه الطريقة، خرجت من الحمام بحزم واغلقت الباب خلفها. سوف ترتب ملابسها وتستحم ثم تنهيا للعشاء.

خيم جو من الهدوء والروعة على الغرفة عندما اضاءت الأنوار الموزعة بشكل مناسب. اغلقت فانيسا الستائر، وفتحت حقيبتها وبدأت عملية الترتيب.

عندما نزلت الى القاعة الكبرى لم تسمع أي صوت سوى حركات رقائق ساعة الحائط. اضيئت ثوباً واحدة فأعطت نوراً برتقالياً انعكس على الجدران والمقاعد الخشبية الثقيلة. كانت العاصفة الرعدية قد انتهت، ولم تتبق سوى بعض حبيبات من المطر تضرب النوافذ بين حين وآخر. لذلك تشجعت وتوجهت الى الباب الخارجي وفتحته. اقلت نظرة متأمله على الحديقة المشبعة بالمطر. احست بقشعريرة خفيفة عندما جاءها صوت من الخلف:

«لا اعتقد انك تفكرين بنزهة في مثل هذا الوقت؟»

استدارت ببطء. عرفت صاحب الصوت على الفور. لم تسمع في حياتها صوتاً يشبه صوته الهادئ العميق مع تلك الرنة الساخرة التي تبدو واضحة عندما يخاطبها. . . وهذا ما كان يزعجها، لكنها لن تظهر ذلك. اجابت: «كنت أأمل فقط».

عادت اليها صورة شجارها الأخير. ما زالت تحس بالوخز في ذراعيها حيث امسكها بقبضتيه القويتين. عليها ان تكون حذرة تماماً مع السيد كال غرين، الآن وكل أوان. كان قد غير ملابسها الى سترة مريحة مع سروال مناسب وقميص مفتوح عند الصدر. وأدركت عند رؤيته - رغم شعورها نحوه - بأنه جذاب للغاية، فالسترة اظهرت منكبيه العريضين، واستغربت

كيف جاءها الانطباع الأول في المقهى بأنه من النوع الذي يهرب من المشاكل. كان يبدو واثقاً من نفسه تماماً. نظرت فانيسا الى نفسها، لقد بدلت هي ايضاً ملابسها الى زي ازرق اللون كان يشعرها بالارتياح دوماً. كانت عمشوقة القامة بغير امتلاء، وقد ابرز اللون الأزرق نضارة بشرتها الوردية. ارادت ان تبدو في احسن صورة كي تستعيد ثقتها بنفسها، خاصة امام ذلك الرجل الذي ما لبث ان سألها:

«هل أنت جائعة؟ السيدة بانكس تريد ان تعرف».

«أجل، لكنني لا أريد ان اشغلها...».

قاطعها قائلاً:

«لن تشغلها، فالعشاء جاهز».

اجابت بنعومة واضحة مع انها لم تكن تريد ذلك:

«قل لي، هل تترك احداً يكمل كلامه؟».

اجاب ضاحكاً:

«ليس هناك وقت للكلام الفارغ، اذا كنت تقصدين ذلك. فأنا اريد ان اطرق لب الموضوع مباشرة».

وافقت بهزة خفيفة من رأسها:

«فهمت ماذا تعني، وعليّ ان اتذكر ذلك. لكنني سأرى كيف تكون ردة فعلك عندما يقاطعك احد ما».

رفع كال حاجبيه مستغرباً:

«لا شك ان الجوع يجعلك عصبية المزاج. هيا بنا الى غرفة الطعام، فستشعرين بالراحة بعد الأكل».

ولمس ذراعها خفيفاً وهو يدها على الطريق.

ايعدت فانيسا ذراعها بهدوء وقالت:

«شكراً لك، فأنا لست طفلة. سأتابعك الى المائدة اذا ما تقدمت الطريق».

اغلق الباب خلفه بسرعة:

«حسناً، من هنا الطريق».

سار امامها متجهاً الى يمين القاعة، وعبر عدة ابواب مغلقة حتى وصل الى غرفة طعام واسعة فيها طاولة تكفي لحوالي خمسة وعشرين شخصاً.

غاص قلبها بين ضلوعها: هنا ستناول عشاءها، بالنسبة إليها كان يكفي طعام خفيف في غرفتها. لكن الأسوأ على الطريق، فعل أحد طرفي الطاولة شاهدت كرسيين فقط.

«كرسيان؟» ونظرت إليه.

ابتسم وقال «نعم، كرسيان». وأضاف متابعاً:

«لم اكن لاسمح لك بتناول الطعام وحيدة. . أليس كذلك؟».

اجابت بلهجة غير مبالية:

«الا تستطيع فعلاً؟ كنت اعتقد ان الأمر سيروق لك!».

«أنا مضيفك الآن وحتى عودة السيد ماكلين».

تنهت الى رنة سخرية خفيفة في صوته العميق. تنفست بعمق وردت ببرودة واضحة:

«أي كرسي لي؟».

سحب الكرسي القريب منها وقال:

«تفضلي واجلسي».

وما ان استقر بها المكان حتى دخلت امرأة قصيرة القائمة ذات شعر اشيب، ترتدي فستاناً اسود اللون، وهي تدفع عربة الطعام امامها. حدقت في فانيسا قبل ان تخاطب كال:

«هذا هو الحساء. من الأفضل ان تتناوله ساخناً».

«انني اعرف ذلك»، ابتسم لها بعدوية ادهشت فانيسا، ثم قال:

«هذه فانيسا كوليتز التي ستشرف على ترتيب المكتبة».

هزت السيدة بانكس رأسها وعلى شفيتها ظلال ابتسامة:

«حسناً جداً. لقد مللت من الكتب التي غملاً المكان». حدقت مرة اخرى بفانيسا قبل ان تضع الصحون على المائدة ثم تغادر الغرفة. ولاحظت فانيسا ان لهجتها عامية واضحة.

كان الحساء المصنوع من عصير الطماطم طيب الطعم للغاية. انتظرها كال حتى بدأت قبل ان يتناول ملعقته:

«ان كلامها أقي من افعالها».

قال وكأنه لاحظ استغراب فانيسا.

«انها لم تقصد الملل من الكتب بل من عدم ترتيبها».

«طبعاً... طبعاً».

ورفعت حاجبها بدهشة مصطنعة فلم يكن وحده قادراً على الفعل الاستغراب.

«انا لم اتصور عكس ذلك».

وانحنى مجدداً نحو الحساء.

تناولت فانيسا قطعة من الخبز المحمص الذي احضرته السيدة بانكس مع الحساء. كان الخبز طازجاً وساخناً، والرائحة الشهية تنبعث منه. وادركت كم هي جائعة، وقررت في نفسها ان لا تدع كال غرين يفسد عليها وجبتها مهما قال او فعل. وللحقيقة كان كال منشغلاً بنفسه بحيث لم يرفع نظره اليها. استطاعت ان تراقب بحذر وجهه وهو منحني نحو الحساء، وقد انعكس ضوء الشمعدان الناري على شعره. هناك شيء مؤثر في ذلك الوجه. ولم تستطيع فانيسا ان تفسر لماذا لم تره قوياً من قبل. لعل النظرة الأولى خادعة دائماً، وهذا بالفعل ما حدث. فالطريقة التي تعامل بها مع الشاين تؤكد قوته. وفجأة خطر على بالها شيء جعلها تضطرب. انه لم يكتف بعدم الخوف منها بل كان يستمتع بالقتال معها. عادت الى صحن الحساء لتخفي اضطرابها، اذ تذكرت ما حدث لها معه في الممر العلوي. اين فرصتها في التغلب على رجل مثله؟ لقد هددها بالفعل عندما حذرتها من انها ستركله بقوة. لعله كان على حق. وشعرت بشيء يرتعش داخل جسمها... شيء من الحقيقة، مع شعور آخر لم تستطع تحديده جعل قلبها يخفق بسرعة. ومهما يحدث الآن فقد حذرنا سلفاً. عليها ان لا تحاول التورط معه ابداً. ومع انها وصلت الى هذه القناعة، الا ان سؤالاً آخر الح عليها: هل سيكون الأمر صعباً؟

«وهذه غرفة زجاجية خاصة للنباتات».

كان كال غرين يربها انحاء المنزل. لم تجد في تصرفاته ما يمكن ان يعطيها مجالاً للشكوى.

رددت الغرفة صدى صوتيهما وهما يدخلان اليها. كان الجو دافئاً ورطباً. شاهدت العديد من النباتات الغريبة الموضوعة في احواض فخارية مختلفة الاحجام، وكذلك كرمة عنب كبيرة تتسلق الحائط وتمتد على امتداد مساحة السقف الزجاجي. نظرت الى أعلى فلمحت عنقوداً من العنب

يخشي تحت الاوراق الخضراء. قالت بصوت خافت:

«انه رائع».

والفقا قائلاً:

«رائع جداً. كنت متأكداً من ان المكان سيعجبك». سخرية خفيفة في صوته، لكنها شعرت بها بأي حال. يا له من رجل كريه. نظرت اليه عليها ان تحافظ على هدوئها، لأنها اذا اضطربت فسوف...

«انمى ان ارى المكتبة» قالت بنعومة، «الن تقودني اليها؟».

كان العشاء ممتازاً بالرغم من بطء الخدمة. وقبل ان يتناولوا القهوة في الصالون الكبير اصر كال على ان يأخذها في جولة على البيت.

«طبعاً. المكتبة هي خطوتنا المقبلة».

شاهدنا معاً الصالون الكبير والمطبخ الفسيح، والعديد من الغرف الصغيرة... احداها تستعمل كمكتب عمل واخرى تضم آلة كتابة واوراقاً مختلفة. منعها كال بأدب من البقاء طويلاً في هاتين الغرفتين فحبست في نفسها عدة اسئلة ستطرحها في وقت لاحق.

انبعث هواء حار عندما فتح باب غرفة النباتات وخرجنا منها الى الممر. سمعته يغلق الباب خلفه ثم يقول:

«ستتجه شمالاً عند اخر الممر».

غريب كيف يحس الانسان اتجاه شخص لا يحبه. كان خلفها تماماً، احست بنخزات في ظهرها وكأنها تتوقع منه ان يهاجمها...

ثم قفزت وهي تصرخ عندما احست بلمسة على ظهرها. اخذ يضحك:

«هل افزعتك؟ انت ذاهبة في الاتجاه الخاطئ». من هنا رجاء».

تجاوزها وهو يمسك بذراعها ليدها على الطريق. استدارت بخضوع. قالت لنفسها «صرت اضطرب كهرة صغيرة كلما كان قريباً مني. يجب ان اوقف هذه المهزلة واسيطر على نفسي... والا سيعرف الحقيقة».

فتح احد الأبواب. دخلت الى المكتبة ونظرت في كل اتجاه. احست بقلبيها يفرق من شدة القرف. ماذا توقعت هنا، مكتبة منظمة حيث الكتب تحتل رفوفاً جميلة؟ الامر ليس كذلك في هذا البيت. مئات ومئات من الكتب المبعثرة في كل اتجاه، والتي تصل الأرض بالسقف بفوضى مرعبة.

«هذه هي المكتبة. فماذا كنت تتوقعين؟».

كان يراقبها، ولاحظت في عينيه اللامعتين شعاعاً من السخرية والتشفي.

هزت فانيسا رأسها باستسلام واعترفت:

«كنت اعتقد... الواقع انها اكبر قليلاً مما تصورت».

بدت ابتسامة خبيثة على شفثيه:

«الحقيقة انها اكبر بكثير. في كل حال يبدو انك قادرة على التعامل معها، لكنك بحاجة الى ملابس قديمة لأن بعض الكتب مغطى بالغبار منذ سنوات».

كان هناك نوع من التشفي في نبرته.

نظرت اليه بحدة. انه يستغل قرارها بعدد الانجرار الى مواجهة معه كي يثير اعصابها، وهو يدرك تماماً ان تصرفاته تجعل الأمور اسوأ... ومع ذلك بلغت ريقها بصمت.

«سوف ابدأ غداً» اجابته بثقة «أوكد لك ان بعض الغبار لن يزعجني ابداً».

ابتسمت وهي تنظر اليه من اسفل الى اعلى، وتتصوره غارقاً في غبار مئات الكتب. سيبدو مثيراً للضحك... لكنها لم تخرج على ذلك.

«حسناً جداً» رفع احد حاجبيه وتابع قائلاً «هيا بنا، سأريك القبو الآن ثم نتناول القهوة. يجب ان لا نترك السيدة بانكس تنتظر اكثر».

«القبو؟».

هل يعتقد انها تريد رؤية الفحم او مواد التموين؟ وامسكت ضحكة كادت تفلت منها.

«صدقيني سيعجبك المكان جداً. هيا بنا من هنا».

تقع السلام المؤدية الى القبو في الجهة الخلفية من المنزل. وكانت فانيسا تشعر بالضياح طيلة جولتها في البيت الكبير... فهذا بيت ابيها... هنا ولد وترعرع ولعب...

«سأسير في المقدمة. فالسلام ضيقة وشديدة الانحدار. هل ترين طريقك؟».

«نعم، شكراً لك».

الجدران مطلية بلون ابيض . والسلام حجرية مغطاة بسجاد سميك بحيث لا تكاد تسمع وقع خطواتها . سارت فانيسا خلف كالم حتى وصلا الى عمر تضيئه انوار خفيفة شاحبة وتطل عليه عدة ابواب كلها مغلقة . تلفتت حولها بسرعة عندما خطرت على ذهنها فكرة انه قد يحتجزها في القبو . الفكرة غير معقولة بالطبع ، لكن مع مفاجآت مثل هذا الرجل كل شيء محتمل .

«من هنا . هذا ما اردت ان اريك اياه» .

فتح كالم الباب البني الواقع الى الشمال . وترددت فانيسا في الدخول . لكنها عندما فعلت اصبحت بدهشة شاملة . اذ ما ان اضاءت الغرفة حتى شاهدت شيئاً لم تكن تتوقعه ابداً ، ولم تجد ازاءه سوى الدهشة . وجدت نفسها في غرفة رياضة واسعة مزودة بالحبال والقضبان الحديدية واحصنة القفز وادوات رفع الاثقال . وفي احدى الزوايا دراجة ثابتة للتمارين البدنية . استدارت فانيسا نحو كالم وقد زالت من نفسها للحظات كل العداوة تجاهه ، وقالت :

«انها رائعة جداً» .

«السيد ماكلين رياضي مداوم . يأتي الى هنا مرتين او ثلاث مرات اسبوعياً» .

تقدم كالم نحو فراش اسفنجي في احد جوانب الغرفة وقال :

«هذا فراش لرياضة الجيدو . السيد ماكلين يبيد هذه اللعبة ايضاً» .

نظرت اليه وتساءلت :

«هل انت مدربه؟» .

هز رأسه نافياً وقال :

«كلا . انا لم ادربه . لكننا نتمرن سوياً . انه في حالة ممتازة بالنسبة

لسنه» .

فانيسا تعرف كم يبلغ جدها من العمر . عرفت ذلك من ابيها . انه في السادسة والستين . لكن من المفروض ان تجهل ذلك ، وقد تكشف هويتها الحقيقية اذا لم تكن حذرة في مثل هذه الأمور .

«كنت اعتقد ان السيد ماكلين عجوز جداً» .

نقلت نظرها بين الفراش وبين كالم ، ولاحظت الحدة في نبرته عندما

اجابها :

«انه في منتصف الستينات على ما اعتقد ، وهذا لا يعني انه عجوز جداً» .

لماذا نظر اليها بهذا الشكل ؟ لقد بدأت تشعر بعدم الارتياح . هل هو شعور المجرم بأنه سينكشف بين لحظة واخرى ؟

وغيرت فانيسا مجرى الحديث لاختفاء اضطرابها وقالت :

«الآن فهمت عرضك بتدريبي . . . فكل شيء موجود هنا!» .

لكنها ندمت على كلامها لأنها كانت تحاول نزع تلك الفكرة من رأسها .

«ما زلت تتذكرين العرض هل تريدين الدرس الأول الآن؟» .

تجاوزت الأمور الحد . حاولت فانيسا ان تبسم بصعوبة وهي تقول :

«بالطبع لا . . . فانا لا اتوقع . . .» .

قاطعها بهدوء :

«خائفة؟» .

«لقد شاهدتك خلال قتال حقيقي ، وهذا يكفي . لربما شطت بك

حماسك بعيداً . اقصد ، لا اريدك ان تشعر بالذنب اذا ما حدث . . . ان

كسرت ذراعي مثلاً» .

ابتسم برقة وهدوء وقال :

«اوكد لك انني ساكون حذراً جداً» .

«انا متأكدة من حرصك ، لكنني لا اريد الآن» .

استدارت فانيسا متجهة نحو دراجة التمرين . فوجئت بكالم يمسك

بذراعها ويوقفها بسهولة .

نظرت الى اصابعه القوية حول ذراعها وقالت بحزم :

«ارفع يدك عني!» .

«اجبريني على ذلك» .

رمقته باستغراب شديد ، فيما كان يتابع قائلاً :

«لو كنت احمل نوايا سيئة تجاهك لما صمدت لحظة امامي . عليك بتعلم

بعض اسس الدفاع عن النفس ، وسيكون هناك عنصر مفاجأة يكفي

لانقاذك مني» .

فلت فانيسا جامدة في مكانها للحظات ، ثم قالت :

ولماذا انت مصمم على تدريبي؟»

«لأنك واجهت وضعاً خطيراً جداً في طريقك الى هنا، اذ ليس لديك اية فكرة عن سبل المواجهة... وايضاً فأنا لا احب النساء اللواتي لا يستطعن الدفاع عن انفسهن».

ورفع قبضته عن ذراعها تاركاً لها حرية الذهاب، لكنها لم تتحرك. ففي كلامه كثير من الحقيقة. وبالرغم من عدم الاعجاب المتبادل الا انه يعني ما يقول.

قالت بعد تردد:

«انني استطيع حماية نفسي. اذا هاجمتني الآن فسوف ارفع قدمي واركلك بشدة...».

قاطعها قائلاً:

«... سوف تجدين نفسك ملقاة على ظهرك قبل ان تصل قدمك الى هدفها».

ولما رآها مترددة وغير مصدقة تابع قائلاً:

«تريدين اثباتاً؟ اذن هيا جربي... هيا».

اندهشت وقالت باضطراب:

«ربما... ربما أؤذيك».

اجابها ضاحكاً:

«سوف اغامر... هيا جربي».

هزت رأسها موافقة لأنها تدرك انه يقول الحقيقة:

«لا اريد ان اجرب. انني اصدقك».

والتفتت الى الخلف حيث فراش الجيدو. وارتجفت عندما فكرت بأنه سيرميها الى الفراش بلمحة البصر.

قال لها وكأنه يقرأ افكارها:

«لن ارميك بقوة. بل لن تشعري بذلك ابداً. وهذا شيء آخر يجب ان تتعلميه: ان تتقني طريقة السقوط بدون التعرض للآذى».

«سوف افكر في الأمر جدياً».

وابتعدت باصرار عنه. الفكرة كلها سخيفة. لن تسمح له بأن يعلمها كيف تدافع عن نفسها، بل لن تسمح له بأن يلمسها... ولكنها شعرت

برعشة خفيفة عندما خطرت هذه الافكار في ذهنها.

طردت الفكرة من رأسها ووقفت تتأمل دراجة التمرين وعدادي السرعة والمسافة الملحقين بها، واللذين يؤشران للمسافة التي «قطعها» الراكب والسرعة التي «سافر» بها. سيكون من الممتع بعد نهار طويل من العمل بين الكتب والغبار، ان تنزل الى الغرفة «للسافر» عدة اميال على الدراجة. اغتصبت الابتسامة التي اوجدتها الفكرة عندما رأت كمال غرين يراقبها.

«هل هناك شيء آخر تريد ان تريني اياه؟».

قالت بسرعة لأن نظراته تلك اشعرتها بعدم الارتياح.

«الحمامات هنا، وغرف تغيير الملابس الى جوارها... هذا كل شيء».

«حسنًا، هل يمكن الآن ان نذهب لتناول القهوة؟ انني متعبة جداً من جراء السفر واريد ان آوي الى فراشي باكراً اذا امكن!».

«بالطبع». فالقيادة الطويلة متعبة جداً.

سارا معاً باتجاه الصالون. التوتر كان مخمياً عليها، ومن الممكن ان ينفجر في اية لحظة اذا لم تكن حريصة، خاصة ان شعورها بعدم الاعجاب المتبادل يجعل الأمور اكثر خطورة. وتساءلت عن السبب في هذا الشعور وهما لم يلتقيا الا منذ ساعات قليلة.

قبل ان تأوي الى فراشها قررت فانيسا ان تنظر الى الأمور من زاوية مختلفة في صباح الغد، انها متعبة، ولم تكن كاذبة عندما قالت لكال غرين ان السفر قد انهكها. فالحادث المشؤوم الذي كاد يقع لها خلق ردود فعل عديدة. هناك اشياء كثيرة يجب ان تشكره عليها، لكنه جعل الأمر صعباً للغاية. رتبت وضع وسادتها ودخلت الى فراشها بعد ان اغلقت الباب باحكام. كانت القهوة بانتظارهما في الصالة عندما عادا من غرفة الرياضة، ولم يكن هناك من اثر للسيدة بانكس او زوجها. لعلها لا ينامان في القصر. يعني... ضحككت فانيسا في سرها وهي تسحب الغطاء الى كتفها. فكال غرين غير معجب بها، ولن يحاول بالتالي ان يتسلل الى غرفتها. استلقت على ظهرها وحدقت في السقف طويلاً. رأت شقوقاً متشعبة تنفرع في كل انحاء. حاولت ان تتصور اشكالاً في هذه السقوف، لكنها لم تستطع لأن الحظوظ بدأت تغيب عن ناظرها. رفعت يدها وجذبت الخيط الذي

يتحكم بالأنوار. . . اطفائه ونامت.

استغربت فانيسا عندما استيقظت باكراً، ما الذي جاء بها الى هذا المكان الغريب؟ لكن سرعان ما عاد اليها سيل الأحداث التي وقعت بالأمس. نقلت عينها في انحاء الغرفة تستكشفها على ضوء الفجر الباكر. كل شيء يبدو مختلفاً، والنور المنسكب من خلف الستائر اظهر اتساع الغرفة وتناسقها الجميل. غادرت فراشها وانجهت الى النافذة.

كان الضباب الكثيف يغطي الأرض، فظهرت الاشجار والزهور وكأنها غارقة في بحر من الدخان الأبيض. السكون يلف المكان. عادت الى سريرها واستلقت عليه برهة. في هذه الأثناء كان الضوء يشتد في الغرفة، وادركت فانيسا انها لن تستطيع العودة الى النوم مجدداً خاصة ان عقلها مليء بالأفكار المتضاربة.

بلغت الساعة السادسة والنصف. وقد ابلغها كال امس ان طعام الافطار سيقدم عند الساعة الثامنة والنصف. وهذا يعني ان هناك متسعاً من الوقت للاستحمام وارتداء ملابسها والذهاب في نزهة قصيرة.

ملأت فانيسا المغطس بالمياه الساخنة وهي تفكر ان نزهة قصيرة حتى الأبواب الخارجية لحديقة المنزل ستساعد على فتح شهيتها للافطار وتعدّها للعمل المتعب في غبار المكتبة. ولكن من الأفضل ان تأخذ حمامها الساخن بعد عناء النهار؟ لعل حمام المساء افضل؟ في كل حال تستطيع ان تستحم مرة اخرى. فقد اخبرها كال من ضمن ما اخبرها امس، ان المياه الساخنة جارية بشكل دائم في المنزل. . . فالمجرى المائي الذي ينبع من سفح الجبل يؤمن للمنزل احتياجاته من الماء، بالإضافة الى انه يسير المحرك الذي يولد الكهرباء ايضاً.

وعندما استلقت فانيسا في المغطس الساخن، استعادت ذكرى السهرة القصيرة التي امضتها مع كال امس حول فنجان القهوة. ورغم كل شيء، لا تستطيع ان تنكر انها كانت هذنة سلمية وسط نهار مليء بالمواجهات. لقد حاول جهده ان يكون ساحراً ولطيفاً، ربما تعتمد ذلك لكنها ليست متأكدة. واستطاعت ان تشاهد جانباً آخر غير متوقع من شخصيته.

ارتدت ملابسها وهي تفكر كيف سيكون نهارها الأول هنا. ولأنها حافت من البرودة في الخارج بعد حمامها الساخن، وضعت على كتفها

معطف الفرو الناري اللون وتسلمت بهدوء من غرفتها الى الطابق الأسفل. وحدها ساعة الحائط الاثرية كانت مستيقظة من خلال دقاتها الرتيبة. وما عدا ذلك لم تسمع فانيسا اي شيء في البيت الذي بدا مهجوراً. انها السابعة وعشر دقائق من صباح احد ايام يونيو (حزيران)، واليوم سترى جدها لأول مرة. سوف تراه وتتحدث اليه كأنه غريب. هو لن يعرف الحقيقة حتى اليوم الأخير، وعندها يكون الأوان قد فات لأنها ستغادره.

احست بالعرق البارد يتصبب من راحتي يديها، فأسرعت تغادر البيت الى الهواء الطلق. وقفت لحظة امام الباب تستقبل الهواء البارد المشبع بالرطوبة وهو يلفح وجهها. لقد انقشع الضباب قليلاً واصبح الطريق المعبد مرئياً الى حد ما، بالرغم من ان الاشجار كانت ما تزال في بحرها الأبيض الساكن. ابتسمت بعطف وهي تشاهد الأرناب تهرب من الطريق عائدة الى الاشجار. لو ان هذه الأرناب الجميلة تعرف انها لا تريد بها شراً؟ من الواضح ان الجو يئس بطقس شمس جميل هذا النهار. شعرت فانيسا بقشعريرة تسري في جسمها. ها هي هنا الآن ملتزمة بانهاء ما عزمت عليه - بغض النظر عن النتائج - ولا يمكن ان تراجع ابدأ.

هل هي نادمة لأنها تركت عملها؟ الزمن وحده سيجيب. كان عليها ان تترك العمل في اي حال خاصة ان رئيسها اصبح مزعجاً مضجراً، وبات لا تحب ان تدخل الى مكتبه لتلقي التعليمات منه. اطبقت عينها قليلاً. ان كال غرين على حق فيما يتعلق بمسألة الدفاع عن النفس. منذ ان بلغت السادسة عشرة، وتحول جماها الطفولي الى فتنة نسائية طاغية، والرجال يحومون حولها دائماً مما سبب لها الكثير من المتاعب. صحيح انها ترتاح لقدرتها على التأثير في الجنس الخشن، لكن هناك جانب آخر للجمال فشل جميع من عرفتهم في فهمه والتعامل معه. فالجمال يسبب التعاسة والغيرة والشك لدى المعجبين الكثر، وايضاً لدى صديقاتها اللواتي اخذن يتجنبنها ويحاولن ابعاد رجاهن عنها مهما كلف الأمر.

والآن، لأول مرة في حياتها، وجدت الرجل الذي لم يقع تحت تأثيرها. . . بل هو معاد لها، حتى ان احداً من الذين عرفتهم لم يعاملها كما عاملها كال غرين. معاملته ليست فقط مزعجة بل متحدية ايضاً. . . واشياء اخرى كثيرة لم يجروا احد من قبل على التعامل معها بهذا الشكل،

خاصة عندما واجهها بعنف في الممر امس. لقد هدهدها بالفعل. فهي اعتادت على الاعجاب العميق من الجميع بحيث شكل لها اسلوبه اللفظ صدمة عنيفة. كم كان مرعباً معها. وفجأة، عادت فانيسا الى الواقع على صوت عواء حاد... شاهدت امامها كلب حراسة ضخماً وقد تحفز للهجوم.

تجمدت فانيسا في مكانها. تعرف من خبرتها ان عليها عدم القيام بأية حركة. فجأة سمعت صوت رجل موجود في مكان ما بين الاشجار: «لا تتحرك يا شيبا».

اجتاحتها موجة عارمة من الارتياح. ولم تعد قدماها قادرتين على حملها وهي ترى رجلاً طويلاً في ثياب سوداء يتجه نحوها. كان في مقتبل العمر، قوي القامة له ملامح الغجر السمراء. ابتسم عندما التقت نظراتهما، وقال بلهجة مؤدبة:

«صباح الخير».

لهجته الاسكتلندية كانت مليئة بالاحترام ولاحظت فانيسا نوعاً من الخجل في تعابيره وتصرفاته.

«صباح الخير. هل هذا كلبك؟».

«نعم».

ثم خاطب الكلب قائلاً:

«الآن يا شيبا عد الى البيت».

نظر الكلب الى صاحبه ثم اطاع الامر وسار بعيداً. تنفست فانيسا بارتياح عميق.

اعترفت قائلة:

«كنت... متوترة الى حد ما».

«انت تعرفين ان شيبا لم يتوقع ان يرى احداً. فهذه المنطقة خاصة».

كان يستعمل لهجة مؤدبة للغاية في محاولة لايضاح الموقف دون اتهامها بالتسلل الى البيت.

«اعرف ذلك. اني اقيم هنا».

فجأة شاهدت في عينيه نظرة تحد:

«اذن انت... الانسة التي جاءت لتنظيم المكتبة؟».

«نعم».

واضطرت الى مواجهته بغضب عندما انفجر ضاحكاً. لكنه استدرك بسرعة وقال:

«انا اعتذر. انني اضحك لأنهم طلبوا مني ان اعطي بعض الوقت للمساعدة في تنظيم المكتبة... وقد حاولت التملص من ذلك».

ثم اضاف مبتسماً:

«لكنني تأكدت الآن من انني اخطأت بالرفض».

كان هناك شيء جذاب في هذا الرجل... وشيء اخر بدا لها مألوفاً. لكن فانيسا استبعدت الأمر. لقد ارتاحت لأنها التقت رجلاً لا يعتمد ان يكون فظاً.

«انا متأسفة ايضاً».

ثم اضافت باستغراب:

«تساعدني في ماذا؟ لا اعتقد ان الأمر يحتاج الى...».

قاطعها قائلاً:

«اساعدك في الكتب. اقصد انزائها عن الرفوف العليا. فهناك اماكن يصعب على المرأة الوصول اليها».

هزت رأسها موافقة:

«آه... لم افكر في ذلك».

«اذن متى ستبدأين العمل؟».

«اليوم. لكن ليس عندك عمل آخر؟».

«بالطبع. انا البستاني، واعمل هنا مع ابي وعمي... وهما سيتدبران الأمر من دوني».

لم يكن في طول كال غرين، لكنه كان اضخم بنية وأقوى مظهرأ.

اقرب من فانيسا ووقف امامها قائلاً:

«انا لوري ماكينزي».

من الواضح انه ينتظر سماع اسمها، ومع ذلك لم يسأل مباشرة. ليس مثل كال الذي طالبها باسمها. لكن لماذا تعود هذه الافكار لتزعجها الآن؟

مدت اليه يدها مصافحة وهي تقول:

«انا فانيسا كولينز».

كانت يده دافئة وقوية.

«سوف اذهب الآن، آنسة كوليتز، لكنني سأعود الى البيت الكبير في وقت لاحق... سوف تباشرين العمل بحدود الساعة التاسعة، اليس كذلك؟».

«اعتقد ذلك، فالسيد ماكلين لم يحضر بعد، والسيد غرين هو المسؤول في هذا الوقت».

لم يكن هناك سبب لقول هذه الجملة، لكن لعلها ارادت ان تعرف شيئاً ما عن الرجل الذي ستقابله هذا النهار.
«آه... انه هو».

رنة صوته كانت غريبة، وللحظة اعتقدت انه يقصد جدها، لكن كلامه اللاحق بين لها خطأها.

«سوف آتي مباشرة الى المكتبة واساعدك. فذلك الرجل سيطلب مني مغادرة البيت اذا ما شاهدني».

وكان على وشك ان يضيف شيئاً اخر، لكنه توقف.

«السيد غرين؟ لماذا؟».

ضحك لوري ماكينزي:

«لقد قلت ما فيه الكفاية. فالى اللقاء يا آنسة كوليتز».

رفع يده مودعاً، وقفل عائداً من حيث جاء... واختفى بين الاشجار. سارت عائدة الى البيت وهي اكثر فضولاً من ذي قبل.

راقبت فانيسا كال غرين على مائدة الفطور. ارادت ان تشير الى لقائهما بلوري ماكينزي، لكنها خشيت ان يعرف كال ان لوري سوف يأتي الى مساعدتها في المكتبة. لذلك التزمت فانيسا الصمت. ارادت ان تعرف لماذا يكره لوري كال الى هذا الحد؟ وهل المشاعر متبادلة بين الرجلين؟ ولم تكن لتدرك ان الجواب سيأتي قريباً جداً، وبطريقة غير متوقعة.

٣- ما هو اسمك الحقيقي؟

بعد الساعة التاسعة بقليل، دخلت فانيسا وكال المكتبة. وكانت الشمس تملأ الغرفة من خلال النوافذ الواسعة ذات التصميم الفرنسي. حاولت فانيسا جاهدة مقاومة الشعور بالانزعاج. انها مهمة صعبة، لكنها هي التي قررت المضي فيها بغض النظر عن كل الاعتبارات الاخرى. شاهدت على الطاولة الخضراء في منتصف الغرفة رداء واقياً. رفع كال الرداء وقدمه لها.

قال لها:

«السيدة بانكس احضرت لك هذا الرداء الذي سيحمي ثيابك من الأوساخ والغبار».

كان صوته هادئاً وخالياً من اي معنى، لكن فانيسا شعرت - مرة اخرى - بشيء مزعج يحيط بهما... نوع من التوتر الحاد الذي لم تفهمه ولم تحبه. «شكراً لك ولها».

كان الرداء مصنوعاً من النايلون ولا يصل الى منتصف الساق، ومع ذلك فهو يفي بالحاجة. نظرت الى الطاولة وقالت:

«سأضع الكتب عليها تمهيداً لفهرستها، فهل من مانع؟».

سار كال الى احدى الزوايا واثار بيده الى مجموعة من الصناديق وقال:

«الاوراق والبطاقات وكل ما تحتاجين اليه موجود هنا».

ثم سالها:

«سوف تحتاجين الى مساعدة عندما تصلين الى الرفوف العليا، اليس كذلك؟».

لم تكن تريد ان تتطرق الى هذه النقطة، ولكن من الغباء الا تفعل الآن.
اجابت وهي تراقب وجهه:

«هناك شخص سيأتي لمساعدتي».

قَطَب حاجبيه وقال:

«ماذا تقصدين؟».

«ذهبت في نزهة عند الصباح، فالتقيت برجل يدعى لوري ماكينزي فقال لي انهم طلبوا منه مساعدتي...».

لم يتركها تكمل جملتها.

«لوري؟».

ولاحظت انه ذكر الاسم بالطريقة التي ذكر فيها لوري اسمه.

واتسعت عينا فانيسا وسالت ببراءة:

«هل هناك شيء غير طبيعي».

نظر كال اليها ملياً. لم تكن هناك اية تعابير على وجهه، لكنها احست بالغضب الشديد بعصف به وهو يحاول السيطرة على نفسه. قال:

«لا شيء». لو كنت مكانك لراقبتة جيداً... فقد تواجهين المتاعب معه».

«المتاعب؟ ماذا تقصد؟».

ظهر عليها الاستغراب، بالاضافة طبعاً الى محاولتها تمثيل دور المغفل البريء... لكنها تناست ما يمكن ان يفعله هذا الرجل.

رد بجفاء:

«اتركي هذه الالاعيب، ولا تمثلي دور البريء المسكين، فذلك لن ينطلي عليّ. انت تعرفين تماماً ما اقصد، بل يجب ان تعرفي. انت بالغة بما فيه الكفاية. ام هل تعتقدين ان الشايبين اللذين هاجماك بالأمس كانا يريدان

تقديم الاحترام والطاعة لسيادتك؟».

جاهدت فانيسا للاحتفاظ بهدوئها. لم ترد ان ترفع صوتها لئلا ينفضح اضطرابها، فقالت بصوت خفيض:

«انت مقرف».

«اذا كانت تصرفاتي المقرفة ستضع بعض الحس في رأسك... فلا بأس. انا لن اكون موجوداً دائماً للدفاع عنك. المسألة كلها ان لوري ماكينزي

ذئب خبيث. وآمل ان تقدرني على التعامل معه».

«انا قادرة على ذلك تماماً. عندي من التجارب ما يكفي لأعرف كيف اتصرف مع كل الرجال».

التمعت عيناها السوداوين بالغضب وقد استعادت ثقتها بنفسها.

«ستقول بعد قليل ان عليّ الا اشجعه... هذا ما اوحيت به امس ايضاً».

«حسناً، اياك ان تشجعيه. اشغالي تكفيني، ولا اريد ان اسمع صراخك طلباً للمساعدة».

«لماذا لا ترحل وتتركني لوحدي؟».

ردت بغضب وهي تجمع قبضتي يديها بشدة. يا له من رجل عنيد ومغرور.

«وفري لكلماتك له».

كان يراقب يديها وعلى شفثيه ابتسامة ساخرة «لقد حذرتك مما سيحدث لك اذا ما تعرضت لي».

«اذهب من هنا فوراً».

«انا ذاهب. الغداء سيكون في الواحدة ظهراً، والسيدة بانكس مستقدم القهوة عند الساعة الحادية عشرة».

راقبت فانيسا وهو يغادر المكتب بهدوء. تضاربت المشاعر في صدرها. لم تلتق باحد من قبل يشبه كال غرين. انه يخيفها بالفعل.

ظلت صامتة للحظات ثم استدارت لتفحص رفوف الكتب المترامية. بعض الكتب كانت قديمة للغاية وقد اصفرت اوراقها وتفتت الجلد الذي يغلفها. رفعت كتاباً عن الأرض وفتحته بعد ان نفضت طبقة الغبار التي كانت تعلقه. كان مجلداً يجمع اعداد احدى المجلات للعام ١٧٦٧،

وكانت اوراقه مصفرة بعامل الزمن ومتشقة في عدة اماكن، لكن الطباعة كانت واضحة بالرغم من صغر حجم الحروف. حملت فانيسا المجلد بعناية، فأحست - كالعادة - بأنها عادت الى تاريخ سحيق. شعرت برغبة

في تصفح المجلد، لكنها ابعدهته مباشرة. لعلها تستطيع ذلك عند الساعة الحادية عشرة، وقت تقديم القهوة.

كانت على وشك ان تضع الرداء فوق ملابسها عندما سمعت الباب

يفتح، ومنه دخل لوري ماكينزي. عادت إليها على الفور كلمات كال عن لوري، لكنها استبعدتها بسرعة واغتصبت ابتسامة عاجلة. فمن السخف ان تترك اعصابها نهياً لذلك الرجل.

حيته قائلة:

«اهلا بك، كنت علي وشك المباشرة في العمل».

رد على تحيتها مبتسماً، كانت ابتسامة ناعمة خجولة، وليست ابداً ابتسامة ذئب.

قالت:

«كنت أتأمل الرفوف هنا. وسأكون ممتنة للمساعدة التي ستقدمها».

كان ينظر إليها بتأمل. ومع انها اعتادت هذه المواقف، الا انها احست برعشة تسري في اطرافها. هل من المعقول ان يستغل وجوده معها؟ كل شيء ممكن حتي مع اكثر الرجال هدوءاً وخجلاً. ولذلك وجدت سلوك كال غريز غيراً، اذ لم يبد عليه انه يفكر بالتقرب إليها بالرغم من انه رجل طبيعي بكل معنى الكلمة.

لكن لوري يختلف عن كال. انه هنا لمساعدتها. وسوف تعقد الأمور اذا ما امضت الوقت في مراقبته. لذلك قررت فانيسا ان تتجنب كل ما يمكن ان يساء تفسيره بحيث لا تدع مجالاً لأحد. ابتسمت له ببرود وقالت مشيرة الى ناحية محددة:

«سأبدأ من هنا. ومن الأفضل ان نجمع الكتب على الطاولة ثم اقوم بالتسجيل».

«سأتناولها من فوق واضعها على الطاولة».

نزع سترته الجلدية الرقيقة فكشف عن قميص داكن الزرقة. كان صدره عريضاً وذراعاها قويتين. وضع سترته على كرسي قريب وتوجه الى احدى الزوايا وعاد بسلم خشبي.

امضى ربع الساعة الاولى في عمل متواصل ينزل الكتب عن الرفوف ويحملها الى الطاولة. عمل بسرعة ونشاط، وعندما وصل عدد الكتب الموجودة على الطاولة الى حوالي مئة كتاب، توقف عن العمل ونظر الى فانيسا.

«هذا كاف على ما اعتقدا» ثم اضاف «فانت بحاجة الى مساحة من

الطاولة للكتابة».

«نعم، وشكراً لك».

«سوف اساعدك».

نظرت اليه فانيسا باستغراب. ماذا يقصد؟

شاهد نظرتها وابتسم:

«سأساعدك في ترتيب الكتب حسب التسلسل.

ليس هذا ما ستفعلينه أولاً؟».

«أجل، ولكن...».

«بهذه الطريقة تسير الأمور بسرعة اكبر بالنسبة اليك ولي».

هزت رأسها موافقة:

«هذا ممتاز. لكنني لا اتصور...».

«ماذا؟ انا اعرف القراءة ايضاً».

«لم اقصد ذلك».

اعترضت بسرعة قبل ان ترى ابتسامته وتذكر انه يمزح.

«اعرف انك لم تقصدي شيئاً. على كل سيكون الأمر مثيراً، خاصة مع الكتب القديمة».

«اذن من الأفضل ان نبدأ الآن. في الواقع ربما تكون لديك افكار افضل

مني. كنت سأسجل كل عناوين الكتب مع اسماء المؤلفين والمراجع

الأخرى، ثم اعيد ترتيبها مع اشارة محددة عند كل عشرة كتب او...».

«لكن عندي فكرة افضل. لنفترض اننا...».

وأخذ يشرح خطته بهدوء وتفصيل وهو يحمل كتاباً من هنا ويقلب

صفحات كتاب آخر من هناك. وكانت فانيسا تفكر وهي تراقبه: انه شاب

لطيف. فلماذا لا توجد علاقات طيبة بينه وبين كال؟ لعل الأمر مجرد عدا

طبيعي، وهو كثيراً ما يحدث دون اسباب... وقد حدث بالفعل بيني وبين

كال.

ولم يكن هناك متسع من الوقت للحديث او التفكير اذ غرقا في دوامة

العمل. ومضى الوقت بسرعة بحيث فوجئا بالسيدة بانكس تدخل عليهما

بالقهوة عند الساعة الحادية عشرة... وعندما شاهدت السيدة بانكس

لوري قالت.

«سأحضر لك فنجاناً آخر».

ابتسم لفانيسا التي كانت تراقب قهوتها وتتساءل عما إذا كان سيعتبرها غير مهذبة إذا ما أخذت رشقة من فنجانها.
قال:

«لا أظنك تعتقدين بأنها تحبني؟».

كان كال قد قال شيئاً ما عن أن أقوال السيدة بانكس أكبر من أفعالها.
لعله على حق. هزت فانيسا رأسها وقالت:

«كلا هل نكرهك؟».

«أجل، بطريقتها الخاصة. يجب أن تتعرفي إلى زوجها، فهو لا يفتح فمه بكلمة إذا استطاع ذلك، ومع ذلك فهي طاهية ممتازة. ولهذا السبب لا يتركها الرجل المعجوز ترحل».

هذه هي الفرصة، واستغلتها فانيسا بسرعة:

«لم ألتق بعد بالسيد ماركين، هل تعتقد أنه شخص مناسب للعمل معه؟».

«بالطبع. أنه رجل ممتاز. عندما يعرفه الإنسان بشكل عميق».

لكن النبرة التي حيرت فانيسا من قبل كانت ما تزال موجودة في كلامه.

«ماذا تقصد بالتحديد؟».

«حسناً. أنه فظ في البداية. قد لا يكون فظاً معك كونك امرأة...».

لكنه قادر على ذلك مع الرجال».

خفق قلب فانيسا بشدة. ما الذي دفعها إلى هذا الموقف؟ لكن ما الذي كانت تتوقعه؟ بالطبع لن تقابل رجلاً لطيفاً، خاصة بعد الذي سمعته عنه من أبيها...

«حدثني عنه قليلاً».

فكر لوري قليلاً:

«أنه طويل القامة، نحيف بعض الشيء. مهووس بالمحافظة على رشاقته، يمشي عدة أميال يومياً... ولا شك أنك رأيت غرفة الرياضة».

«شاهدتها بالفعل. كال غرين اخذني إليها مساء أمس».

«ووجدت نفسها مدفوعة لأن تضيف قائلة».

«لقد وعد باعطائي بعض الدروس في الجيدو».

احتقن وجه لوري بالغضب. وكان على وشك أن يقول شيئاً عندما انفتح الباب ودخلت السيدة بانكس حاملة فنجان القهوة الثاني.

«هذا فنجانك».

وضعت على الطاولة ونظرت إلى فانيسا قائلة:

«الغداء يقدم في الساعة الواحدة...».

ثم غادرت الغرفة.

تساءلت فانيسا عما كان سيقوله لوري، إذ أنه حاول جاهداً خلال وجود السيدة بانكس أن يطرد من نفسه مشاعر الغضب. لكنه عاد إلى طبيعته الآن وقال:

«لو كنت مكانك لابتعدت عن مضايقاته».

«لماذا؟».

نظر إليها بحدة.

«لأنه ثعلب. عرضه لك هو مجرد عذر...».

قطع حديثه فجأة ورفع فنجان القهوة إلى شفثيه.

استغربت فانيسا كيف حافظت على طبيعتها. كال حذرهما أولاً من لوري، والآن لوري يحذرهما من كال. القصة كلها مضحكة، لكن الاثنين جادان في مخاوفهما.

«يا الهي، هل هو كذلك؟» وراقبته وهو يخرج علبة السجائر. قدم لها سيجارة، فرفضتها قائلة:

«لا ادخن، شكراً».

«هل تمنعينني في أن ادخن؟».

«لا أبداً! لماذا تقول أنه ثعلب؟ فانا لم أره كذلك؟».

بدأ الغضب واضحاً على وجهه عندما أجاب:

«لأنه ذكي جداً في إخفاء احتياله. لكن عليك أن تسألني اختي عن الحقيقة فهي تعرفه أكثر من أي إنسان آخر... أجل اختي. لقد رحلت الآن إلى أبردن... هي تستطيع أن تحبك أشياء عديدة عن كال غرين».

«متى رحلت؟».

«منذ أكثر من شهر تقريباً. أنها تعمل الآن في فندق خالتي، وتقول أنها لن تعود ما دام كال هنا».

كان ينظر الى الباب وكأنه يتمنى ان يدخل الشخص الذي يتحدث عنه. تناولت فانيسا جرعة كبيرة من القهوة لترطب فمها الجاف. وتنازعتها رغبتان: الاولى في ان تسمع المزيد، والثانية ان تقول للوري انها لا تريد ان تسمع شيئاً آخر. لكن لوري حل المشكلة عندما وقف واطفاً سيكارته في المنفضة وشرب قهوته دفعة واحدة.

«حسناً، لقد قلت ما فيه الكفاية. يجب ان اعود الى عملي بعد تناول الغداء. قبل ذلك سأجهز لك من الكتب ما يكفي لعملك هذا اليوم.»
«شكراً لك، هل تعرف متى سيعود السيد ماكلين الى البيت؟»
اجاب قائلاً:

«انا لا اعرف، لكن السيدة بانكس يمكن ان تخبرك. لماذا تسألين؟»
«انه صاحب العمل... واعتقد انه».

قاطعها بابتسامة صفراء:

«حاولي الاستفادة من الوقت قبل ان يحضر».
لكنه استدرك قائلاً:

«كنت امزح فقط. انه ليس شيئاً على الإطلاق. فقط» تردد قليلاً ثم تابع «من الصعب شرح ما اقصد بكلمات قليلة، فهو يبدو في بعض الاحيان وكأنه ينظر من خلال الانسان، اي كأنه لا يراه ابداً او انه بعيد عشرات الاميال... انه غريب جداً».

انصتت فانيسا بامعان. اين يكون عندما يذهب بعيداً؟ هل يسترجع الاحداث الماضية ويندم لما فعله؟ هل يعرف ان ما فات قد مات؟ ربما لن تعرف ابداً. شيء ما خفق في داخلها. انها تريد ان تلتقي هذا الرجل، جدها، ولكنها في الوقت ترغب بالهرب وتنسى كل شيء عن دينستون هاوس. اطرقت تنظر الى يديها. كلا، يجب ان لا تفعل ذلك ابداً. عليها ان تستمر حتى النهاية.

«هل انت على ما يرام؟».

«ماذا؟ آه. انا متأسفة».

هزت فانيسا رأسها وابتسمت بعمق للوري ناسية قرارها بابقاء مسافة بينها وبينه.
«كنت افكر».

وشاهدت وجهه يتغير، التمعت في عينيهِ السوداءين ملامح دافئة...
فحاولت نظرها عنه وشغلت نفسها باحد الكتب.

بعد عشر دقائق وقع المحذور. كانت قد توجهت الى احد الرفوف للتأكد من كتاب وضعت هناك قبل قليل، وعندما رفعت رأسها، شعرت به خلفها تماماً حتى قبل ان تلتفت اليه. تنفست بعمق، ثم احست بيده اليسرى على ذراعها فالتفتت بهدوء وقالت:

«نعم، ماذا؟».

ماتت الكلمات اذ انحنى نحوها وعانقها بملء ذراعيه.

دفعته بعيداً عنها بدون غضب وقالت:

«لماذا فعلت ذلك؟».

ابتسم لوري قائلاً:

«احسست برغبة في ذلك».

كان وجهه شاحباً عندما نظر اليها.

قالت بحزم:

«ارجوك ان لا تكررهما. يجب ان تتذكر اننا نعمل معاً فقط، وليس اكثر من ذلك».

«سأحاول ان اذكرك. هل كنت سترحين بالأمر لو كان كال مكان؟».

كبتت فانيسا موجة عارمة من الغضب وقالت:

«بالطبع لا. وعلى كل فان الأمر لا يعينك إطلاقاً».

«هذا افضل. فانا لا يمكن ان اتصورك بين ذراعيه».

اجابته ببرود شديد:

«اذن لماذا لا تفكر بعملك بدلا من الافكار الأخرى؟».

طلعت ابتسامة كبيرة على شفتيه وهو يقول:

«انك قوية بالفعل. انا احب الفتاة التي تتأجج بالنار».

ابتعدت فانيسا عنه باغماء الطاولة. وضعت الكتاب الذي كان بيدها ثم

عادت نحوه وهي تقول:

«اسمع. يبدو انك خرجت عن حدودك. انا اشكر لك مساعدتك في

الكتب، لكنني متأكدة من قدرتي على الاستغناء عن خدماتك اذا كنت

سأضطر الى مراقبتك طوال الوقت. هل كلامي واضح؟».

التمعت عينها بالغضب وامتلاً خذاها بالدم، وهي تقف بتحد وثقة بالنفس بينما كان لوري يقترب نحوها.
في هذه اللحظات بالذات دخل كال الغرفة. فخيم جو من الصمت المتوتر لثوان معدودة، قطعه كال بصوته العميق قائلاً:
«جئت لأرى ان كان كل شيء على ما يرام».
استدارت نحوه قائلة:

«الأمور ممتازة، شكراً لك».
حاولت الابتسام، لكنها لم تستطع. في حين كان كال يوجه نظره حديدية الى لوري.

«هل واجهت أية متاعب مع الكتب؟»
قابل لوري نظره كال بقسوة اشد... وفكرت فانيسا التي كانت تراقب المشهد بانها اشبه بكليين في شارع مهجور، كل منها يزن قوة الآخر ويستعد للهجوم في أية لحظة.

«لا متاعب على الاطلاق. وامورنا تسير على خير ما يرام».
وحاولت ان تضع ابتسامة معبرة على وجهها. فقد قررت بينها وبين نفسها ان تثبت في موقعها وتنتظر ما سيحدث، لأن ما يجري الآن لا يعينها لا من قريب ولا من بعيد.

هز كال رأسه دون ان يعبر وجهه عن مشاعره.
«حسناً، سأترككم تكملان العمل».
ثم غادر المكتبة وهو يحاول ان يسيطر على اعصابه الثائرة. وعندما اغلق الباب التفت لوري الى فانيسا وافلت صغيراً متقطعة.

قال لوري:
«حفظنا جيد انه لم يدخل قبل ثوان. ترى ماذا كان سيفعل لو رأي وانا اعانقك؟»

«لست ادري».
ثم اضافت وهي تحاول اخفاء دهشتها:
«كنت تفضل ذلك! فعندها سيقع الشجار بينكما وهذا ما تريده».
انقبضت عضلات وجهه وهو يقول:
«وانتهى الفرصة المناسبة لضربه... اذا كان هذا ما تقصدين!».

عقدت فانيسا حاجبها وقالت:

«اذن من الأفضل ان احذرك، لقد تعرضت وانا في طريقي الى هنا لمشكلة مع شاين يركبان الدراجات النارية. واستطاع كال ان يطيح بها ارضاً بلمح البصر مع ان احدهما كان يحمل زجاجة فارغة. لم ار مثل ذلك المشهد في حياتي، وانتهى ان لا ارى مثله في المستقبل. وحتى لو كنت تكرهه فيجب الا تستهين به، فهو اقوى بكثير مما يبدو عليه».
اجاب لوري بنعومة:

«استطيع تدبر امري معه. فقط اريد الفرصة المناسبة».
راقبته فانيسا جيداً. انه قوي وصلب العود. ترى لماذا يرغب الرجال في القتال دائماً؟ ولماذا يحلون جميع المشاكل بالقوة الجسدية؟ احست بانها تعبت من هذه الأجواء التي اصبحت مزعجة للغاية، ولعل احداث الأمس، او ما كاد يحدث بالأمس، هي مصدر تعبها.

وحتى حلول موعد الغداء، كان سلوك لوري سليماً. جهز عشرات الكتب بحيث لا تضطر فانيسا الى تناول اي منها طيلة اليوم مهما عملت بسرعة. ولم يحاول ابداً ان يلمسها ولا ان يقترب منها. وقبل دقائق من الساعة الواحدة قال:

«سوف اذهب الآن، ولكني سأعود صباح الغد اذا لم يكن عندك مانع؟»

اجابت
«شكراً لك. السيد ماكلين سيكون هنا في ذلك الحين، فهل تعتقد انه بمانع؟»

«هو الذي اقترح الفكرة اساساً». واضاف مبتسماً «عندما يراك سيدرك فوراً لماذا غيّرت رأيي. فهو معجب بالنساء الجميلات ايضاً».

لكن مزاجها لم يكن ليتقبل الاطراءات:
«اذن، اراك صباح غد. يجب ان اذهب الآن واستعد للغداء».
خلعت الرداء الواقفي ووضعت على الكرسي قبل ان يتحرك لوري لمساعدتها. ثم خرجا معاً من المكتبة.

كانت غرفة الطعام خالية تماماً عندما دخلتها فانيسا بعد عشر دقائق واول ما لاحظت كان وجود كرسيين فقط حول الطاولة. خفق قلبها بطريقة

غريبة، اذ هذا يعني ان جدها لم يات بعد. جلست في المكان الذي شغلته امس، فأحست بموجة عارمة من الوحدة تجتاح نفسها. فجأة دخل كال غرين الغرفة، فبذلت جهداً كبيراً كي تخفي الأسى الذي كان واضحاً في عينيها.

جلس كال في مواجهتها وعلى وجهه تعبير غريب وفي عينيه نظرة متفحصة وكأنه يعرف ما الذي جرى في المكتبة. واخيراً حطمت كلماته جدار الصمت:

«انا متأسف اذا كنت قد دخلت عليكما في الوقت غير المناسب». ولكن فانيسا لم تجد في صوته ما ينم عن الأسف فعلا.

اجابته بهدوء:

«لا ابدأ، كنا مشغولين في ترتيب الكتب، هذا كل شيء».

«هل كنتما فعلاً؟ بدلي ان في الجو نقاشاً حاداً... لكن المسألة لا تعنيني على اي حال».

اجابت موافقة:

«معك حق، المسألة لا تعنيك ابدأ».

في تلك اللحظة دخلت السيدة بانكس، فقطعت ما كان كال على وشك ان يقول. تركت لها الحساء وبعض الخبز، وقالت:

«سأعود بعد دقائق. الغداء اليوم فطيرة بالجبن، فاستعدا لها».

فكرت فانيسا: لو كنت هنا مع شخص آخر لضحكنا على طريقتها في الكلام، لكن هذا الشخص العدواني... لماذا هو هكذا، لماذا؟

انحنيت نحو طبق الحساء الذي كان ساخناً جداً، وما ان لمست الوعاء حتى سمعت زعيقاً حاداً من الخارج فقفزت خوفاً واضطراباً. اصطدمت بالطاولة فاهتز الطبق وانسكب الحساء الساخن على يدها اليمنى. اطلقت فانيسا صرخة الم عالية وهي تحس حرارة الحساء تلسع يدها بشدة. ركض كال نحوها وامسك معصمها بيده وسكب محتويات ابريق الماء على الجزء المصاب. طلب منها بصوت آمر ان تجلس وتضع رأسها بين ركبتيها فوراً. اطاعته دون اية مقاومة وسمعتة يقول:

«سأحضر بعض الاسعافات الأولية، دقيقة واحدة فقط».

عادت اليها موجة الالم اشد مما كانت، ولكنها لم تتحرك من الكرسي.

كان صوته آمراً بحيث لا تستطيع ان تخالفه. لم يغب كال سوى لحظات معدودة عاد بعدها وهو يحمل صندوقاً وضعه على الطاولة وفتحه بسرعة... ثم اخرج مرهماً اصفر اللون وذلك به الجزء المصاب. قال لها وهو يواصل التدليك:

«الصرخة التي سمعتها هي صوت الطاووس. صحيح انه يصدم الانسان للوهلة الأولى لكنك مستعدين عليه بسرعة».

«طاووس!».

تساءلت بصوت هامس وهي تضغط على شفتيها لتجس صرخة ألم.

«هذا أفضل، اليس كذلك؟».

كان كلامه بارداً وحاداً، وقد اختفت العدواة بينها على الأقل لبعض الوقت.

«اجل، شكراً لك».

نظرت الى الطاولة، فصدمتها الفوضى التي سببها الحادث. شعرت بالدموع تطفر الى عينيها وهي تقول:

«انا أسفة».

قاطعها وهو ينظر بدوره الى الطاولة.

«لا تهتمي، فالسيدة بانكس سترتب كل شيء في لحظات».

قالت له معتذرة:

«لم تتناول حساءك بعد».

كان يلف قطعة من القماش حول يدها، في حين بدأ الالم يخف بفعل الدواء الذي وضعه. اجاب قائلاً:

«انه كان ساخناً جداً. هل تريدان ان احضر لك صحناً جديداً؟».

هزت رأسها:

«كلا، سأكتفي بقسم من الفطيرة... فانا لست جائعة تماماً».

«بالطبع، هل تنوين الراحة في غرفتك لبعض الوقت؟».

نظرت اليه بحدة عندما احست السخريّة في صوته. استغرب نظرتها وقال:

«وما الأمر؟».

هزت فانيسا رأسها المتعب:

«لا شيء». اعتقدت انك...»

قاطعها بابتسامة لطيفة:

«اسخر منك؟ كلا. لقد شحبت لونك من جراء الصدمة. لا احد يمانع في ان تأخذي قسطاً من الراحة ولو لنصف ساعة».

«كلا، شكراً لك. سأشعر بتحسن كبير بعد ان آكل».

لكنها بدأت ترتجف، ولم تستطع ان تخفي الحقيقة.

وضع ذراعيه على مرفقيها ورفعها عن كرسيها قائلاً:

«من هنا، انتقلي الى الكرسي الآخر واحضري معك طبق حسائك».

وكانت فانيسا اضعف من ان ترفض اوامر.

احست بالدفء والشبع عندما تناولت الحساء الذي اصبح فاتراً.

احضرت السيدة بانكس الفطيرة، ولما شاهدت فوضى المائدة طلبت منها

الانتقال الى ناحية اخرى حتى تنظف الطاولة وتعيد ترتيبها، ففعلت بدون

تردد.

اشتد الألم في يد فانيسا التي اعتقدت انها استطاعت اخفاء الحقيقة عن

الرجل الجالس قبالتها والذي لم يعد يظهر علامات العداء المعتادة تجاهها.

بعد ان انها الأكل، اتجه ناحية فانيسا وقال:

«هيا بنا، سنتناول القهوة في الصالون».

«أجل».

تمايلت قليلاً عندما وصلت الى الباب، وسمعت صوته وكأنه قادم من

البعيد... ثم احست بدفء يده على ذراعها.

همس في اذنها:

«لماذا انت عنيدة الى هذا الحد؟».

وبالرغم من انها فهمت ما يقصد الا انها قالت:

«لم افهم ما تعني تماماً؟».

وعلى طول الطريق من غرفة الطعام الى الصالون كانت الجدران تتمايل

امام ناظرها... وكم شعرت بالفرح لأن ذراعه القوية تسندها.

قالت وهي تنظر اليه بعد ان اجلسها في المقعد:

«انني على ما يرام».

ولم تستطع اخفاء دموع الألم. ودون ان ينبس ببنت شفة استدار مغادراً

الصالون وتركها وحدها.

اعتقدت انها ازعجته، فرحلت. قالت لنفسها: هذا ممتاز. لكنه عاد يعد

اقل من دقيقة حاملاً فنجانين من القهوة. قال وهو يضع الفنجان على

الطاولة القريبة منها:

«سأخذك الى الطبيب في القرية. اشربي قهوتك، ثم نتوجه اليه».

«لكني لا...».

«ارجوك بدون نقاش».

ثم اضاف بلطف:

«سنذهب اليه حتى لو اضطررت لحملك الى السيارة».

نظرت الى فنجانها ثم تناولته ببطء. لا شك انه يعني كل كلمة قالها.

وهي تعرف انه سيفذ وعيده. وابتسمت في سرها عندما تصورت نفسها

«عمولة» بين ذراعيه الى السيارة.

«حسناً».

واغمضت عينيها بالمر عندما رشفت جرعة كبيرة من القهوة الحارة.

«هل تريدن سيكارة؟»

«انا لا ادخن الا نادراً... شكراً لك».

سمعت صوت الولاة، ثم شممت رائحة التبغ المحترق... لكنها لم

تستطع ان تنظر اليه. والسبب غير معروف اخذ قلبها بخفق بسرعة غير

طبيعية، لدرجة اعتقدت معها انه سيسمع دقاته اذا ما رفعت عينيها اليه.

كان رأسها ساخناً، وتساءلت اذا كانت حرارتها قد ارتفعت بسرعة.

وضعت يدها على جبينها فأحست به مشتعل.

«هل انت على ما يرام؟»

بدا لها صوته وكأنه آت من مسافة بعيدة جداً، او كأنها على وشك

الاصابة بالصمم... رفعت رأسها بسرعة فوجدته وقد اقترب لتناول

فنجان القهوة من يدها.

«لا بأس... لا بأس... فقط...».

لم تستطع ان تبلى ريقها. يا الله، ما الذي يحدث لها؟ بدت الغرفة

لناظرها سابحة في ضباب رمادي كثيف، ورفعت يدها في محاولة يائسة

للمتمسك بأي شيء... ثم احست بيد تمسك يدها وسمعت صوت كال آتيا

من البعيد البعيد... لكنها لم تسمع كلمة مما قاله.

اتفقت بعد فترة لتجد نفسها ممددة على المقعد المجاور. فتحت عينيها ببطء فوجدت كال واقفاً بالقرب منها. التفت عيونها. قال لها:

«لم يحدث شيء، اغمي عليك فقط. فلا تقلقي».

قالت فانيسا:

«لم يحصل ان اغمي علي من قبل».

ابتسم برقة وهو يقول:

«لقد بدأت الآن. ارتاحي هنا لعدة دقائق ثم نذهب الى الطبيب».

لا تريد ان تذهب في سيارته، انها لا تعرف لماذا، ولا تستطيع ان تقول

له ذلك ايضاً لانه هدد بحملها بالقوة اذا رفضت. بدأت قوتها تعود اليها

وصارت قادرة على التفكير بوضوح. بعد عدة دقائق نظرت اليه قائلة:

«انا جاهزة الآن».

«اذن سنذهب الآن. فكلما اسرعت بمعالجة الجرح، كان الشفاء

اسرع».

انتظرت فانيسا في البهو الداخلي في حين توجه كال لاحضار السيارة الى

الباب الامامي. سمعت صوت عجلات السيارة، فغادرت الباب بثأن

لانها لم تكن قد استعادت توازنها كاملاً.

بعد دقائق كانا معاً على الطريق. وكان كال يقود سيارته بسرعة معتدلة.

سألته عندما اقتربا من الطريق الرئيسي:

«كم تبعد القرية عن البيت؟».

«حوالي ثمانية اميال. بعد قليل سنصل اليها. هل عاودك الالم؟».

رسمت على شفيتها ابتسامة شجاعة وقالت:

«ليس قوياً. لم يحصل ان اغمي علي من قبل. هذه اول مرة».

«ربما لم تصابي في الماضي بالأذى كما اصبحت اليوم. فالأغماء رد فعل

طبيعي من الدماغ ضد الاصابات».

«هل حدث ان اغمي عليك من قبل؟».

ركز نظره عليها وكأنه يحاول استكشاف خلفيات السؤال. ثم ابتسم

قائلاً:

«نعم. مرة واحدة... لكنني لن اخبرك عن تفاصيلها، ليس الآن في اي

حال».

استغربت فانيسا كيف ان التوتر قد زال بينهما، ولكنها احست بشيء غير

طبيعي وهما في طريقهما الى القرية. وعدلت من جلستها عندما تذكرت انها

في السيارة نفسها مع الرجل الذي تكرهه، وانها اجبرت على مرافقته

بالرغم من قرارها بعدم الاقدام على ذلك ابداً. ووجدت نفسها تنتظر شيئاً

ما لا تعرف طبيعته.

واخيراً سمعت ما كانت تتوقعه قال فجأة دون ان يرفع نظره عن

الطريق.

«سيأتي صاحبنا صباح غد، وليس اليوم كما كان المخطط؟».

عرفت على الفور من المقصود بكلمة «صاحبنا»، لكنها تساءلت كما لو

انها فوجئت:

«ومن؟ السيد ماكلين؟».

التفت اليها بطرف عينية وقال:

«ومن غيره؟ انه صاحب العمل. اعتقدت انك تريدان معرفة موعد

حضوره!».

«طبعاً... طبعاً».

خفق قلبها بسرعة اشد. كان هناك شيء ما في كلماته لم تستطع ان

تعرف معناه. لذلك كان عليها ان تفكر ملياً قبل ان تتكلم، خاصة ان الالم

اخذ يزداد ايضاً.

«لكنك قلت انه سيعود اليوم!».

«كان من المفروض ان يعود ظهرأ، لكنه اضطر للتأخر، هل قلت انك لم

تقابليه من قبل؟».

ما الذي عناه بسؤاله هذا؟ نظرت فانيسا الى الاشجار المتناثرة خارج

السيارة، ولم تلاحظ انها كانت تضغط على معصمها المصاب. وفجأة عادت

الى الواقع وقالت:

«كلا لم اقبله. كيف يمكن ذلك وانا جئت من لندن؟».

«اعرف انك من لندن وان اسمك فانيسا كولينز».

تجمدت فانيسا عندما رآته يبتسم وهو ينطق هذه الكلمات. لقد شدد

كثيراً على كلمة كولينز، ولا شك انه تعمد الأمر.

شعرت بخوف غامر استمرّ للحظات فقط، ثم تنفست بعمق. هل يمكن ان يكتشف الحقيقة؟ لا، فهذا مستحيل. لكنها تتمنى الآن لو انها لم تأت ابداً. بدأت يدها تنتفض من الألم، لم تعد قادرة على التعامل مع هذا الرجل المزعج خاصة في مثل وضعها الحالي... بل لم تعد قادرة حتى على ايجاد الاجوبة اللازمة.

ومع ذلك حاولت:

«نعم. واسمك هو كال غرين، اسم غريب حقاً».
«أجل اسمي الكامل كالوم غرين، ابي اسكتلندي واممي رومانية».
اثار هذا الاكتشاف اهتمام فانيسا برغم انشغالها بامور اخرى وراّت فيه مناسبة لابعاد كال عن الموضوع الاساسي:
«تقصد ان نصفك روماني؟».

هز رأسه علامة الایجاب. كان عليها ان تلاحظ ان نصفه اجنبي من خلال فكه العريض وشعره الأسود وعينه الناريّتين الحادتين اللتين استطاعتا ان تغوصا في اعماقها.

«لا» لكنها لم تعرف لماذا قالت هذه الكلمة.

«لا ماذا؟».

«لا شيء، لا شيء».

وهربت من عينيه الى الأشجار في الخارج.

«وماذا عن والدك؟ الى اي بلد ينتميان؟».

كان مجرد سؤال تقليدي في مثل هذه المناسبة، لكن تصرفات كال جعلتها تشك في كل كلمة يقوها.

تنفست بعمق وقالت «امي...» لكن القصة التي رددتها عشرات المرات في سرها تبخرت دفعة واحدة. تحول رأسها الى صفحة بيضاء خالية. رفعت يدها الى جبينها. لم يعد عندها سوى سلاح واحد:
«انا آسفة... ان يدي تؤلمني بشدة».

كان ادعاؤها حقيقياً، ولو بشكل جزئي. على الأقل سيعطيها بعض الوقت للتفكير. وحتى هو لن يعتمد الى ازعاجها اكثر. ترى هل يفعل؟ ومع انه لم يصدقها، فقد تصرف بشكل مغاير تماماً. زاد سرعة السيارة فوراً وقال:

«سنكون هناك خلال دقيقة فقط».

والقت فانيسا رأسها على المقعد تأخذ قسطاً من الراحة. هي تعرف انها هذنة مؤقتة... لكن كم من الوقت ستدوم؟

كان الطبيب من النوع الصامت، وعندما خرجت فانيسا من عيادته كان الألم قد خف بشكل كبير. كتب لها وصفة طبية واعطاها بضع حبات من الدواء وامرها ان ترتاح لعدة ايام.

في القاعة الخارجية جلس كال على احد المقاعد الخشبية ينتظر انتهاء الطبيب. نهض واقفاً عندما برزت فانيسا وسألها:

«هل تشعرين بانك أفضل؟».

«أجل. شكراً لك. قال لي انك فعلت المناسب عندما سكبت الماء البارد على الحرق، فهذا سيمنع ظهور ندوب دائمة. على كل يجب ان ارتاح لعدة ايام ثم تعود يدي الى طبيعتها».

«اذن يجب ان نجد لك وظيفة اخرى غير المكتبة؟».

قال هذه العبارة مازحاً وهو يفتح لها الباب. نظرت اليه بحدة:

«لا ابداً، فانا اكتب باليد اليسرى. لقد اعطاني الطبيب وصفة، فهل هناك صيدلية قريبة؟».

«في الطرف الآخر من القرية. سأحضر السيارة».

«الا نستطيع ان نسير اليها؟».

«هل تشعرين بقوة كافية للسير؟».

التفتت فانيسا اليه بسرعة. هل كانت هناك تلك النغمة الساخرة ام ان خيالها يزيّن لها الأمور كالعادة؟

«اعتقد ان السير في مثل هذا النهار الجميل سيفيدني».

وكانت على حق. فالشمس تطل وسط سماء صافية تماماً. الى يسارهما بحيرة واسعة، وإلى اليمين صف لا ينتهي من البيوت الريفية الضائعة وسط الحدائق.

«حسناً، هيا بنا».

سارا معاً فوق الشارع غير المعبّد في اقسام كبيرة منه، ولم تزعجها حركة السير. حاولت فانيسا الانشغال عن الغريب الذي يسير الى جانبها بتأمل الريف الممتد حتى حدود التلال البعيدة. كانت المنطقة اخاذة بحيث تمت

فانيسا ان تمضي عمرها كله هنا.

«انه منظر ساحر، اليس كذلك؟».

فوجئت بكلامه، وتساءلت.

«اي منظر».

«هذه المنطقة، الريف كله، لقد لاحظت التأثير الذي تركه عليك لأول مرة».

«اجل، انه رائع».

لكنها شعرت بالقلق، لماذا يتصرف بهذا الشكل المكابر؟ لقد استطاع فعلا ان يقرأ افكارها. لماذا يجب ان يكون هنا الآن... هنا في دينستون هاوس؟ ليس بالامكان ان تحصل على جواب كاف، لكن عليها ان تكون حذرة للغاية معه. وحتى تسترجع شجاعتها المهزوزة قالت شيئاً ارادت ان تقول قبل دقائق:

«اشكرك جداً لانك احضرتني الى الطبيب، فقد فعلت عين الصواب».

«لا بأس على الاطلاق».

وابتسم بعمق وهو ينظر اليها، فقفز قلبها في صدرها عدة قفزات متتالية. والان لماذا انفعلت هكذا؟ فكرت في نفسها. انه انسان كرهه بالفعل، لكنه يتغير تماماً عندما يبتسم. فهو يستطيع ان يكون جذاباً اذا ما اراد. وما حدث بعد ذلك جعلها تتأكد من الامر اكثر... ولكنها... لم تكن قادرة على توقع الأمور.

انتظر كال حتى وصل الى نصف الطريق المؤدي الى البيت، تقريباً في النقطة التي اشار عندها الى فانيسا للتوقف مساء امس، وتوقف فجأة فالتفت فانيسا اليه خائفة.

«اعتقد انك ستعجبين بالمشهد من هنا، فالمرتفع يؤمن رؤية اوسع».

وعلى الفور شككت فانيسا بنواياه، خاصة عندما تذكرت الاسئلة التي طرحها قبل ان توقفه بحجة الألم في يدها. الآن لا تستطيع ان تفعل شيئاً. انتظرت حتى خرج كال من السيارة واستدار ناحيتها وفتح الباب لها، فخرجت. في الاقل لا وجود للعداء في تصرفاته، ولكن الشك يسيطر عليها. هناك طريقة واحدة للتصرف: البرودة المطلقة.

«شكراً لك».

ابتسمت وهي تغادر السيارة فكانت الابتسامة نفسها التي كانت تجعل السيد مورتون يقع في حبها.

رد كال ابتسامتها باحسن منها. كانت عيناه صافيتين وودبتين. قال بهدوء وثقة:

«هذا افضل. ليس من المناسب ان تمضي الوقت كله في الشجار، اليس كذلك؟».

وافقت فانيسا:

«طبعاً».

ثم التفتت حولها وقالت: «اين...؟».

اشار مقاطعاً:

«هناك. اذا صعدنا التلة سنشاهد اروع مشهد في كل اسكتلندا، على الاقل حسب رأيي. هل يمكنك الصعود؟».

كان السؤال بلهجة قلقة وكأنه فعلاً يهتم بها... وقد بدأت فانيسا تعتقد بانه قلق عليها حقيقة.

«اجل». وسارا صعوداً نحو التلة تاركين خلفهما شجيرات عديدة، وحشائش بدأت تخضر مع الربيع المقبل، وبعض الازهار البرية المتناثرة هنا وهناك. استنشقت فانيسا نسيم الربيع الممزوج بعيق البحر وهي تقطع المسافة القليلة المتبقية. وعندما وصلت الى القمة تسمرت في مكانها وعلى وجهها علامات الاعجاب العميق.

قالت باندهاش:

«انه رائع... انه رائع جداً. اليس كذلك؟».

كانت التلال تمتد تحتها في كل اتجاه حتى شاطئ البحر، واللون الاخضر الغامق يغطي كل شيء... وفي المدى البعيد وقفت صخور جبارة امام زحف الموج الذي كان يرتد عنها تاركاً في الجو رذاذه الابيض المائل.

ونظر كال اليها وابتسم مجدداً، وتساءلت لماذا يبذل كل هذا الجهد فجأة قال لها:

«انا اعرف ان اسمك ليس فانيسا كوليتز». ثم اضاف بهدوء:

«فما هو اسمك الحقيقي؟».

٤ - عشاء مع الغريمة

صعقت فانيسا عند سماعها كلام كال، واحست بالضياح لثوان خيل اليها انها ساعات... لكنها استعادت رباطة جأشها بسرعة وتذكرت النصيحة الذهبية: الهجوم هو افضل وسيلة للدفاع. استدارت ببطء نحوه وقد زال الخوف من نفسها. فهي لن تترك هذا الرجل يفسد عليها المخططات التي اعدت لها منذ مدة. بدا عليها الهدوء التام، كيف لا وهي تملك اسلحة لم تستعملها بعد ولا تعتقد انه يستطيع مواجهتها. انوثتها هي احد اهم الاسلحة. ويمكنها دائماً ان تستعمل سحرها النسائي حتى النهاية. ولكن الوقت لم يحن بعد. الآن عليها ان تستفز مشاعر الغضب في نفسها رداً على اتهاماته الباطلة. فهذا هو الموقف الصحيح لو كانت فعلاً بريئة من تلك الاتهامات. وخرجت الكلمات قوية وهادئة:

«عفواً، ماذا قلت؟ هل جنت ام انك مجرد انسان وقح؟»

وقف كال قبالتها واضعاً يديه في جيبي سرواله وقال:

«محاولة جيدة. ادعاء الغضب يناسبك تماماً».

ارتفعت درجة التوتر عند فانيسا، ولكنها جاهدت للحفاظ على هدوئها. من الأفضل الا تفقد اعصابها. وعليها ان تستمر في التمثيل لثلاث ثوانٍ شيئاً تندم عليه فيما بعد، خاصة اذا ارادت مواجهة هذا الرجل. كان كال يراقبها وقد تضرع خذاها واخذت تتنفس بسرعة، لكنه لم يبد اية مشاعر، وظلت ملامح وجهه القوية الصلبة ساكنة وهادئة. ولقد اطلقت اتهامات سخيفة، فهل يمكن ان توضح كلامك؟»

بدت ملامح ابتسامة على وجهه:

«طبعاً، انت تذكرين تفاصيل لقائنا الاول؟»

«وهل يمكن ان انساه؟ انت تشير اساساً الى الطريقة الفظة التي سألتني فيها عن اسمي».

«هل كنت فقط؟ حسناً، ربما... لكنني كنت غاضباً منك».

فقاطعت بصوت ناعم:

«يظهر انك تريد ان تخبرني قصة حياتك! فاذا كنت...»

«لا، لن اخبرك قصة حياتي. انت التي سألت. لم تستطعي حتى ان تذكرني اسمك».

«لقد ذكرت لك السبب. فأنا لا اخبر الغرباء عن...»

«دعك من هذا. اي غريب انا؟ فقد انقذتك لتوي من موقف صعب.

فلماذا يجب ان تخافني مني؟»

«كنت متوقرة جداً. وسأكون ممتنة اذا ما سمحت لي بانهاء جملة واحدة

اقولها».

واندبجت في دورها الجديد مما اعطاها دفعة كبيرة من الثقة بالنفس.

«لنقل انني لم ارد ان اعطيك اسمي الحقيقي. هذا كل ما عندي من

دفاع. انت اسوأ انواع الناس، لأنك تختار الأوقات غير المناسبة حتى تطرح

اتهاماتك السخيفة. هذا طبيعي منك، وانا اجد ان ملاحظاتك مهينة ولن

ابقى هنا دقيقة واحدة، ويمكنك ان تستمتع بالمشهد وحدك».

ثم استدارت وتركته خلفها مصممة على الرجوع الى السيارة، بل حتى

السير الى البيت اذا رفض نقلها بعربته. المهم ان تحافظ على مظهر الثقة. اذ

حتى لو كانت ترتعد داخلياً، فما دامت قادرة على اخفاء الأمر، فإن عندها

فرصة كبيرة لربح المعركة. وهذه كانت معركة بالفعل، بين شخصيته

الصلبة الاستفزازية وبين موقفها دفاعاً عما تعرفه وبجهله هو.

لحقها كال على الفور. لم ينتظر ابداً، بل قفز التلة بخطوات عريضة ثم

امسك بذراعها وجدها في مكانها. ولم يكن امامها الا الوقوف. استدارت

اليه وقد امتلأت بالغضب الحقيقي هذه المرة.

«ابعد يديك عني ايها الخبيث».

ضاقت حدقتا عينيه وهو يقول:

«ان لك مزاجاً صعباً للغاية».

«معك انت؟ اجل... انت مقرف».

فجأة اطلق ضحكة عالية مجلجلة. نزعت فانيسا ذراعها من قبضة يده باقصى ما تملك من قوة، وصرخت:

«انت حقير... حقير... دعني لوحدي».

وانفجرت باكية رغماً عن ارادتها، فأسرعت تركض نحو السيارة والدموع تحجب عنها الرؤية الواضحة. كان كل شيء يسبح في ضباب خفي وكأنها في حلم. انتظرت في السيارة حتى يأتي كال ويسحبها الى الخارج. لم تعد تهتم بشيء. انه انسان حقير.

احست به في المقعد المجاور، دون ان تراه بسبب دموعها. وعندها قال:

«حسناً جداً. لقد اوضحت ما تريدن. بربك اوقفي هذا النحيب!».

قطعت المفاجأة بكاءها. تمحطت بمندبل ورقي وقالت:

«لقد اجبرتني...».

واخذت تبحث عن مندبل اخر في حقيبة يدها.

«هاك مندبلي».

فأخذته ومسحت به دموعها وانفها. وفكرت في نفسها:

«كم اكرهه الآن!».

وجاهدت كي لا تطلق الجملة في وجهه.

سمعته يدير آلة التسجيل، فانسابت موسيقى خفيفة في السيارة. خفف كال الصوت قليلاً وقال لها وقد التفت عيناه عينيها الدامعتين:

«حسناً ايها القطة المتوحشة. خففي من روعك الآن».

وتساءلت في نفسها عن رد فعله فيما لو ضربته بقوة. وكانت الرغبة عميقة بحيث اضطرت للتشبث بحقيبة يدها كي تمنع نفسها من الضرب. ولأنه لم يتوقع جواباً منها، ادار محرك السيارة وانطلق بسرعة فائقة عائداً الى دينستون هاوس. واستقرت فانيسا في مقعدها ويدها تضغطان على المندبل والحقيبة. انها منهكة للغاية وتريد بعض الراحة بالحاح.

وعندما استلقت فانيسا في سريرها ذلك المساء، وقبل الاستعداد لتناول العشاء، عادت الى ذاكرتها احداث اليوم بشكل مؤلم واضح. لقد

استطاعت منع نفسها من التفكير بعد عودتها الى دينستون هاوس، اذ رفضت اقتراح كال بأخذ قسط من الراحة وتركته فور دخولها البيت وأمضت طيلة بعد الظهر في المكتبة. وبحلول الساعة الرابعة احضر لها فنجان القهوة بنفسه وسأها اذا كانت تشعر بالألم، ثم تركها. كانت تعابير وجهه آنذاك هادئة وخالية من القسوة التي ابداهها عند التلة.

لم تعد قادرة على التمثيل الآن، فقد هاجمتها مخاوفها دفعة واحدة وهي مستلقية في سريرها. من الواضح انه يشك فيها. لكن باية طريقة؟ لقد قال - وجاهدت لتنظيم افكارها المشوشة - ماذا قال تحديداً؟ «انا اعرف ان اسمك ليس فانيسا كولينز... فما هو اذن؟» تنفست بعمق وهي تسترجع كلماته حرفياً، وكذلك تعابير وجهه التي رافقت تلك الكلمات. كان يتكلم بنهم واضح، وفي عينيه نظرة تؤكد انه يعرف كل شيء... بحيث زرع الرعب في قلبها.

واخذت تزن الأمور بمنطق. ما قاله لا يعني انه اكتشف الحقيقة فعلاً. يمكن ان يعتقد اني امرأة متزوجة وهاربة من زوجها. والأرجح انه يفكر هكذا. نظرت الى يدها، فلم تجد أثراً للخط الأبيض الذي يتركه خاتم الزواج. وفجأة نهضت من السرير وتوجهت الى علبة مجوهراتها الموضوعة على طاولة الزينة وقلبته بحثاً عن خاتم ذهبي كانت تفتن به دائماً. ولما وجدته وضعته في اصبعها وابعده عن وجهها لتأمله ملياً. هذا الخاتم سيفي بالغرض وعليها ان ترتديه دائماً منذ الآن، وعندها لن يلاحظ غياب العلامات الصغيرة. وقبل ان تستعد للعشاء انتزعت الخاتم من اصبعها ودخلت لغسل يدها.

نزيت جيداً وارتدت زياً رمادياً فضفاضاً وطويلاً يبرز قوامها الرشيق ويجعلها تبدو اكثر اناقة وسحرًا. حسها يقول لها بان كال سيثير الموضوع الليلة وقبل عودة جدتها غداً، اذا كان فعلاً سيواصل تحقيقاته عن شخصيتها... والأرجح ان يحدث ذلك على العشاء. فاذا ما بدت بأحلى حالاتها، فستحصل على دفعة كبيرة من الثقة بالنفس هي بأمر الحاجة اليها.

وقفت امام المرآة لتضع اللمسة الأخيرة من ظلال العيون واحمر الشفاه. انها صارخة الجمال، ولكن جمالها لم يكن مصدر سعادة دائماً، بل كثيراً ما

سبب لها المشاكل بحيث وجدت نفسها تحسد صديقاتها ذوات الجمال العادي، فهن لا يواجهن مصاعب كثيرة، ومع ذلك لا يقدرن هذا الوضع. تنهدت مطولاً وهي تضع احمر الشفاه. انها مستعدة للعشاء الآن. الفت نظرة اخيرة على الغرفة ثم اطفأت الأنوار ونزلت الى غرفة الطعام. وجدت كال في الغرفة مع اناس آخرين هذه المرة. استعادت رباطة جأشها بسرعة بعد صدمة المشاهدة الأولى. على الأقل لن يقدم على خلق المشاكل امام الناس. كانت هناك امرأتان، ام وابنتها على الأرجح، تجلسان الى الطاولة التي اعدت لاربعة اشخاص. شاهدها كال فنهض للملاقاتها.

«ها قد وصلت اخيراً».

قال العبارة وكأنه انتظرها طويلاً. ثم توجه نحوها لمرافقتها الى المائدة. تنفست فانيسا بعمق لأن شيئاً ما اشعرها بوجود جو عدائي في الغرفة موجه ضدها شخصياً.

«السيدة ماكري، هير، هذه فانيسا كوليتز. وهاتان صديقتان للسيد ماكليين».

تقدمت فانيسا نحوهما ويد كال على ذراعها. لم يتردد عندما نطق اسمها، بل ذكر اسمها الأول وكأنه اعتاد عليه. مدت يدها اليسرى للسلام لأن اليمين ما تزال مضمدة. تأملت السيدة ماكري ملياً بعينيها الزرقاوين الحادثتين وسط وجه جميل جذاب.

«كيف حالك يا آنسة كوليتز، لقد تأسفنا للاصابة التي لحقتك اليوم. هل تشعرين بتحسن الآن؟».

كانت ترتدي فستاناً فضفاضاً من الساتان السميك بلون بنفسجي فاقع، وتساءلت فانيسا في نفسها اذا كانت هذه السيدة تعرف ان اللون لا يناسبها ابداً. اما الابنة فقد كانت مختلفة تماماً. وعندما التفتت فانيسا اليها ادركت على الفور من اين جاء جو العداء ضدها. لم تكن هير ماكري مجرد شابة جميلة، فتفاصيل وجهها الأشقر كانت كاملة ابتداء من العينين الناعستين تحت رموش كثيفة حتى الشفتين المكتنزتين الحمراوين، وقد تركت شعرها الأشقر الطويل منسدلاً على كتفيها وعقدته بربطة حريرية زادت انوثته وشباباً. كما ساهم ثوبها الزهري المفتوح في ابراز هذه الصورة.

ابتسمت لفانيسا. . . وكان لسان حالها يقول: «حسناً، انا لا احبك!». قالت بنعومة وحياء:

«مرحباً، لقد اخبرنا كال. . . ونظرت الى الرجل الطويل الواقف الى جانبها: . . . عن الحادث الصغير الذي وقع لك. انه حادث مؤسف». لكن المعنى وراء هذه الكلمات كان واضحاً بالنسبة لفانيسا التي بدأت تمنى لو انها بقيت في غرفتها. المعنى يقول بوضوح: «ان كال لي انا، فراقبي تحركاتك. وانا مسرورة جداً للحرق الذي اصاب يدك».

ردت فانيسا بابتسامة مصطنعة.

«شكراً لك».

لقد اعتادت على مثل هذه المواقف العدائية، اما اذا اعتقدت الشابة الشقراء ان فانيسا تريد الاستيلاء على كال فهي غخطئة تماماً. على الأقل، كال خصم على مستوى ما، وهو افضل من هذه الشقراء النحيقة التي تبدو اكبر من فانيسا بحوالى السنة، والتي ينسب شكلها عن الثراء الفاحش الذي يجعل الثقة المبالغ فيها الى بعض الناس.

توجه كال الى خزانة الخائط ثم التفت نحو فانيسا وسألها:

«ماذا تشربين؟».

اجابته قائلة:

«عصير التوت رجاء».

آه لو يظل لطيفاً كما هو الآن، فالحياة تكون رائعة عندها. ولن تحب فانيسا ما تشكو منه.

دخلت السيدة بانكس حاملة طبق الحساء. وأمضى الجميع دقائق في ترتيب مقاعدهم. ثم ادركت فانيسا ان السيد ماكليين يجب ان يكون هنا على العشاء والا فكيف تفسر حضور هاتين الضيفتين. وقد تأكد ظنهما من خلال الحديث الذي جرى على العشاء بين كال والسيدتين في حين ظلت فانيسا مستمعة. فقد قررت بينها وبين نفسها ان تتصرف بهدوء وان لا تتكلم الا اذا خاطبها احد الحضور. فهي غريبة هنا وبمجرد موظفة، والآخرين كما هو واضح يعرفون بعضهم جيداً. لو انهم يعرفون الحقيقة، لذابت الابتسامة على شفتي هير.

امسكت فانيسا عقال لسانها وتناولت حساءها بحذر بالغ متذكرة ما

حدث عند الظهر... ونظرت الى كال فوجدته يحدق فيها.
اتسعت عينها تعجباً، ترى ما هذا التعبير على وجهه؟ خيل اليها انها
ترى معنى محيراً، لكن المعنى اختفى عندما قال:
«الحساء ليس ساخناً كالمرّة السابقة؟»
اغتنبت ابتسامة وقالت:
«كلا».

كان يعمل جاهداً كي يلفظ الجوّ. ومن خلال نظراته الى الفتاة
الأخرى لم يكن الأمر صعباً. من الواضح ان هناك شيئاً ما بينها خاصة
النظرات الدائمة التي كانت تلقىها هيثر باتجاه كال، والبسمات التي
حرصت على ان تلاحظها فانيسا دائماً. اما كال فقد لعب دور المضيف
بنجاح في غياب السيد ماكلين. وكان يبدو على السيدة الكبيرة اعجابها
بكلام كال بحيث طغت ضحكاتها على العشاء كله. وتساءلت فانيسا عن
الوقت المناسب الذي يمكنها فيه ان تنسحب الى غرفتها. فهي متأكدة من
انهم لا يريدونها، كما انها لا تريد ان تبقى معهم ايضاً. ولكن تبين ان
الحرب مستحيل، فما ان انتهوا من تناول الجبنة والبسكويت حتى اقترح كال
ان يتوجهوا الى الصالة لتناول القهوة. هممت السيدة ماكري موافقة، في
حين ابتسمت هيثر لكال بنعومة بالغة... اما فانيسا فقد قالت بهدوء:
«اطنكم ستعذرونني لعدم تمكيني من البقاء»!

ضاقت عينا كال وهو يسألها:
«ولكنك ستتناولين القهوة معنا؟»
«لا شكراً. العشاء كان ممتازاً... لكنني لا استطيع السهر».
ابتسم بهدوء وقال:

«يجب ان لا تغضب السيدة بانكس. فهي لن تقبل بأن تجد فنجان قهوة
غير مشروب على الطاولة، باعتبار انها فخورة جداً بالقهوة التي تصنعها».
شعرت فانيسا برغبة طفولية في ان ترد عليه قائلة: «يمكنك ان تشرب
الفنجانين بنفسك. لكنها لم تفعل بالطبع. واكتفت بالقول:

«هل يمكن ان آخذه الى غرفتي اذن؟»
تدخلت هيثر بصوت ناعم قائلة:
«بالطبع يا كال. فلا شك ان فانيسا متعبة بعد حادث اليوم».

والتفتت الى فانيسا وكأنها تقول: حظك سيء... على كل حال نحن لا
نريدك ايضاً.

استغربت فانيسا، وهم يسرون في الممر المؤدي الى الصالون، كيف ان
كال فظ معها بينما هو ناعم جداً مع هيثر. وقالت لنفسها: كم ان الرجال
اغبياء! يكفي ان ترف تلك المرأة جفنيها حتى يسرع كال للركوع بين
يديها. على كل هما مناسبان لبعضهما... واعتقدت ان هذه النتيجة
ستعزبها قليلاً، ولكن هذا لم يحصل.

وعندما دخلت السيدتان الى الصالون تمهل كال ليفسح الطريق امام
فانيسا... لكنها توقفت قليلاً. استدارت نحوه وقالت:
«السيدة ماكري على حق. يدي اتعبتني. ولذلك سأستأذن بالانصراف
وأوي الى فراشي. وانا متأسفة على فنجان القهوة».

رأت عضلات فكيه تنقلص وتشد، فأدركت انه غضب من شيء ما.
اعطاها هذا الاحساس بعض الارتياح ومكنها من ان تضيف بسرعة:
«واعتقد ان وجودي غير مرغوب فيه في هذه السهرة... كما ان التلفاز
سيعرض فيلماً جيداً».

ودون ان تنتظر جوابه دخلت الى الصالون وتوجهت حيث جلست
السيدتان وقالت:
«ارجو العذرة... تصبحون بخير».

ولم تنظر الى كال وهي تغادر الغرفة، لكنها شعرت بأنه على وشك ان
يلحق بها ويوقفها مثلما فعل فوق التلة بعد الظهر.

اغلقت باب غرفتها والقت بجسمها عليه وتهدت بعمق. انتهى كل
شيء. وفكرت بارتياح: اذا ما التقيت هيثر العزيزة مرة اخرى فلن ازعج
نفسي بمحادثتها. توجهت نحو النافذة واسدلت الستائر المخملية. ثم
ادارت جهاز التلفاز وغرقت في الكرسي الوثير الذي يواجهه. شعرت
بالندم لأنها لم تنتظر قليلاً لتحضر فنجان القهوة معها. ولكنها لن تنزل
لاحضاره بل تفضل ان تشرب الماء بدلاً من القهوة.

ملأت موسيقى البرنامج الكوميدي الذي يعرضه التلفاز جو الغرفة في
حين اهمكت فانيسا في فك سحاب فستانها... عندما ارتدت الفستان لم
تجد صعوبة في رفع السحاب. لكنها اضطرت الآن لاستعمال يديها

الاثنين لأن السحاب تعرقل عند الرقبة تماماً. فكرت للوهلة الأولى بأن تتسلل دون أن يراها أحد إلى المطبخ وتسال السيدة بانكس أن تساعدنا. اسقطت هذه الفكرة وهي تبسم لسخافتها. الأفضل أن تبحث في الغرفة عن شيء يساعدنا مثل مبرد اظافر أو مقص. واخذت ثقل كل الاحتمالات المعقولة وغير المعقولة. اسهل احتمال كان أن تنزل وتسال السيدة ماكري أن تساعدنا. . . اسقطته عندما فكرت كيف ستكون ردة فعل هيثر. فجأة سمعت قرعاً على الباب، ودون أن تلتفت قالت: «أدخل».

لا بد أن كال قد طلب من السيدة بانكس أن تحضر لها القهوة. لكن الصدمة كانت كبيرة عندما التفتت من فوق كتفها لتجد كال نفسه حاملاً لها فنجان القهوة ومعه بعض الشوكولاته: «آه، هذا أنت؟».

وضع الصينية التي كان يحملها على الطاولة المجاورة للباب. «من توقعت؟ لوري؟» سألتها بجفاء وقد اسود وجهه، وتابع: «لماذا تحاولين ازالة هذا الكرسي؟» «حتى استطيع مشاهدة التلفاز براحة». ثم تذكرت ضرورة أن تشكره فقالت: «اشكرك لأنك احضرت لي القهوة». . . اجابها مضيقاً: «... والشوكولاته بالنعناع ايضاً».

ثم اقترب من الكرسي وحمله على الرغم من ضخامته وثقله وقال لها: «قولي لي أين تريدينه؟» «آه هنا. إلى اليمين قليلاً. ممتاز، شكراً لك. . . لقد، لقد اعتقدت أنك السيدة بانكس!».

رفع أحد حاجبيه وقال: «صحيح؟ أنا متأسف لأنني خيبت ظنك». بلعت ريقها وهي تقول «كنت اريد» عليها أن تتحرك الآن والافات الأوان.

«لم استطع أن افك سحاب فستاني واردت ان...» ترى لماذا لم يقطعها كمادته؟ يا له من رجل خبيث. اما هو فقد ظل

واقفاً يراقبها بهدوء بانتظار انتهاء كلامها. وتابعت تقول: «كنت سأسال السيدة بانكس ان...».

من الأكيد انه سيرفض مساعدتها. واخيراً ابتلعت كبرياءها وقالت: «ارجوك، هل لك ان تساعدني في حل عقدة سحاب فستاني بالقرب من العنق؟».

«بالطبع. لم اعرض المساعدة أولاً لكلا يساء فهمي». ادارت ظهرها وهو في طريقه اليها. خيم جو من الصمت على الاثنين، فأحست فانيسا بأنه يتمتع بالاحراج الذي اصابها من جراء طلبها. كانت يداه باردتين ومريعتين. حل عقدة السحاب من الأعلى، تردد قليلاً، ثم كمل سحبه الى الأسفل. احست بنفسه يلفح رقبتها وهو يقول: «هل يكفي هذا؟».

«لست...»، امتدت يداها إلى الخلف لتجس السحاب، فالتفتا كفيه للحظات قليلة كانت كافية لبث تيار كهربائي في جسدها.

«إلى الأسفل قليلاً، ارجوك». يا الله، ماذا حل بها؟ فقد كانت ترتجف مثل ورقة شجر في مهب الريح. ابتلعت في داخلها: «ارجوك ارحل الآن». واحست بالسحاب ينحل أكثر. «هذا افضل. شكراً لك».

واستدارت بسرعة خوفاً من أن يحاول أن يحمله أكثر مع أنها تعرف أنه لن يفعل، فاصطدمت به. اسرع كال بوضع يديه حول كتفها لمنعها من السقوط، وللحظات وقفا صامتين واحساس بالتوتر يمين عليهما لادراكهما بأن شيئاً غريباً يحدث في الغرفة.

«حسناً، يجب ان اذهب الآن لأنضم إلى الضيوف». حطم كلامه الصمت بينهما فاستدارت فانيسا بعيداً في حين سار كال نحو الباب مغادراً الغرفة. فتح الباب، تردد قليلاً قبل أن يقول: «تصبحين على خير».

انزعجت وسادة السرير وشفقت الباب بعنف. خيل اليها سماع ضحكته في الممر. فوقفت في مكانها وصدرها يغلي بالغضب. لكنها لم تكن

غاضبة تماماً، فالشعور الذي ملأ صدرها كان جديداً عليها... انه مخيف ومثير في آن واحد.

اعتقدت فانيسا انها ستأوي الى فراشها باكراً. وبعد ان خلعت ملابسها جلست في المقعد اللين تحتسي قهوتها مع الواح الشوكولاته بالنعناع. احست بالتعب فقررت ان تنام فور انتهاء الفيلم التلفزيوني. ومع مضي الوقت وجدت نفسها قلقة وغير قادرة على النوم. كانت تسمع صدى اصوات تنبعث من الطابق السفلي بدون ان تعرف ما هي. ترى ماذا يفعلون هناك؟ يتحدثون؟ يلعبون الورق؟ وعندما انتهى الفيلم الذي كان مملاً ومخيفاً مفسحاً المجال للاعلانات، قامت فانيسا نحو النافذة وازاحت الستارة. امام الباب وقفت سيارة «رولز رويس» فخمة. من الذي يسوقها؟ الأم ام الابنة؟ على كل حال هما ما زالتا في البيت.

وفي لحظة غضب اخرجت فانيسا الستائر بعنف واطفأت التلفاز وتوجهت الى السرير. استلقت في فراشها من دون ان تستطيع النوم. وازداد الألم تدريجياً في يدها بحيث لم تعد قادرة على الاحتمال فتوجهت الى الحمام وتناولت حبتين من الدواء الذي اعطاها اياه الطبيب. وبينما هي عائدة الى سريرها سمعت مهممات تصدر من أسفل النافذة فتوجهت اليها فوراً. رفعت الستارة بحذر شديد ونظرت الى الباحة التي اضيئت فجأة فانعكس النور على لون الرولز رويس الذهبي، وهناك وقف ثلاثة اشخاص: السيدة ماكري وهيثر وكال. كانوا يتحدثون، وأحدهم يضحك عالياً. لمست هيثر ذراع كال الذي انحنى نحوها كأنه يريد سماع كلمات خاصة منها... ومع ان فانيسا ارادت ان تبعد عن النافذة الا انها لم تستطع.

وأخيراً لوحت السيدة ماكري بيدها، ففتح كال باب السيارة الخلفي لها. دخلت هيثر خلفها بعد ان تمهلت لتبادل عنقاً قصيراً مع كال. اغلق باب السيارة، فأنزلت هيثر الشباك وقالت شيئاً ما لكال الذي رد بضحكة طويلة. اذن هناك سائق خاص لقيادة السيارة؟ ولماذا لا؟ رابت فانيسا السيارة وهي تتحرك باتجاه الباب الخارجي. وكانت على وشك ان ترخي الستارة، لكنها ترددت قليلاً لتأمل كال الذي انعكس ظله على الباحة الامامية. كيف اعتقدت انه ليس قوياً؟ انه يبدو الآن كحيوان شديد القوة مليء بجاذبية لا يمكن انكارها ابداً. وفجأة استدار والتفت الى اعلى...

مباشرة باتجاه فانيسا. نظر اليها لشوان قبل ان يتسهم ويختفي داخل البيت. ففز قلب فانيسا بشدة وهي تبعد عن النافذة. لقد شاهدها الآن، فماذا يفكر في ذلك؟

اعتقدت انها لن تنام بسرعة، لكن حبي الدواء اعطنا مفعولها الفوري. وغرقت في كوابيس مزعجة دارت كلها حول وجهين، احدهما لرجل عجوز لم تره بعد والآخر لشاب قوي الملامح اصبح مألوفاً لديها تماماً.

استيقظت باكراً، لكنها ظلت مستلقية تسترجع احداث اليوم الماضي. وفجأة اعترتها رعشة باردة فانتصبت جالسة. لقد تذكرت انها ستلتقي جدها بعد ساعتين تقريباً. لن تستطيع ان تتراجع الآن فقد فات الأوان. ودامها شعور آخر بالانزعاج عندما فكرت في كال. فهذا الرجل سيراقبها بدقة، اذ انه يشك فيها بدون ان يعرف لماذا. لعله حدس وجود شيء غير طبيعي في تصرفاتها، ولذلك عليها ان تتصرف باعصاب باردة وهدوء تام. فهل تستطيع ان تنجح في هذه المهمة؟ حاولت ان ترخي اعصابها وهي تغسل وجهها وترتدي ملابسها. انها تحتاج لكل ما تحتزن من ارادة، خاصة خلال اليومين المقبلين، وستراقب كال غرين بحرص بالغ في هذه الفترة. عليها ان تتناول الافطار بسرعة وتبدأ عملها في المكتبة لأن الكتب ستساعد على التفكير المستمر بكال وجدها. كانت تتوقع ان تكره المكتبة خاصة انها قبلت الوظيفة كوسيلة لتنفيذ مآربها. لكن هذا لم يحدث. لقد وجدت متعة فائقة في التعامل مع الكتب الانيقة وقراءة عناوينها والرجوع الى الماضي كما كان، اذ ليس افضل من كتاب يعيد احياء الماضي بلحظات. كما كانت هناك مئات الصحف القديمة التي دلها عليها لوري في احدى الزوايا، وبعضها يعود الى اوائل القرن الثامن عشر. وقد تشوقت فانيسا للعمل فيها وترتيبها حسب التسلسل الزمني. ولا شك ان هذه المجموعات قيمة جداً، لكن هل يعرف جدها قيمتها الحقيقية؟ هذا ما ستعرفه قريباً.

وبينما هي تنزل السلم متمهلة باتجاه الطابق السفلي سمعت باباً يفتح، فتوقفت. هل هذا باب غرفته؟ لقد سمعت صوت محرك سيارة وهي تستحم، لكنها لم تشاهد شيئاً امام المنزل عندما نظرت من النافذة. وفجأة

اعتراها شعور بالضيق والارتباك.

«صباح الخير».

دأبها الصوت بحدة وهي تنزل الدرجات الأخيرة وتلتقي مواجهة مع الرجل الآتي من الصالون. ارتاحت قليلاً عندما رأت أنه كال. كان يرتدي صديريّة صوفية بيضاء فوق قميص أبيض أيضاً. بدا لها جذاباً أكثر من ذي قبل، وعرفت على الفور لماذا اعجبت هيثر بهذا المخلوق القوي. ابتسم لها، فأعادها فوراً إلى حالة الترقب والاستنفار.

«اعتقد أن السيد ماركين لن يكون معنا على الفطور، لكنك ستريه لاحقاً».

«ألم يحضر بعد؟».

«أجل، لقد حضر».

بدت عيناه الخضراوان بلون رمادي غامق من تأثير الضوء القوي. لكن فانيسا كانت مهتمة أكثر بالنظرة المتمعنة التي أطلقها نحوها. وتذكرت أنه رآها مساء أمس وهي واقفة على النافذة. نزلت الدرجة الأخيرة وسارت باتجاه غرفة الطعام. ولأن ساقيه كانتا طويلتين فقد تمهل في سيره كي يبقى في موازاتها.

«كيف حال يدك اليوم؟ هل تشعرين بتحسن؟».

«نعم شكراً لك».

«هل طلب منك الدكتور اينيس مراجعته مرة أخرى؟».

خففت سيرها ونظرت إليه. كانا قد وصلا تقريباً إلى باب غرفة الطعام. قالت:

«طلب مني أن أغير الضمادة يومياً، وأن أبلغه على الفور بأي طارئ».

«ولا أتوقع حدوث التهابات لأن جراحي تلتئم بسرعة».

«ممتاز. وهل تستطيعين لف الضمادة؟ ألا تريدين أية مساعدة؟».

«لا، شكراً».

وابتعدت عنه. اذ بدا لها للحظة وكأنه سيمسك ذراعها، وهي لا تريد أن يمسه أبداً.

لم تكن السيدة بانكس في أحسن حالاتها في تحضير الفطور. لعل ذلك بسبب عودة صاحب البيت، فربما هي مهتمة بأعداد فطور خاص له ليتناوله

في غرفته. وتساءلت فانيسا عن المكان الذي كان فيه جدها. من المحتمل أنه كان مسافراً. أنها لا تعرف طبيعة الأعمال التي يقوم بها، خاصة أن أباهما تكتنم جداً في هذه الناحية.

«هل أنت قادرة على تقسيم قطعة الجبنة؟».

فاجأها سؤاله:

«ماذا؟ آه، أجل أستطيع تدبر أمري».

وقالت في سرّها «وكانني سأسمح لك بأن تقوم بالمهمة عني». وتساءلت عما سيحدث في عطلة نهاية الأسبوع، هل سيطلب منها العمل خلالها؟ من الممكن أن تقبل العمل صباح السبت، أما بعد الظهر ويوم الأحد فلا.

قررت الخروج في سيارتها إلى نزهة غير بعيدة، بعد ذلك ستقرأ، ثم تكتب رسائل إلى الأصدقاء أو تكتفي بمشاهدة التلفزيون في غرفتها. . . عل الأقل ستكون هناك في مأمن من إجهادات كال ونظراته الباردة المتحدية.

رفعت عينيها فجأة فوجدته يحدق فيها، وتشابكت نظراتها للحظة في حوار صامت غريب. حبست فانيسا أنفاسها. ما هو المعنى الذي تحمله نظراته؟ هناك شيء لا تستطيع فهمه. لم يكن العداء الذي عهدته منه، وحتى لو كان كذلك فإنه عداء خفي. . . وإلى جانبه تعبير لم تعود من قبل، إذ لم يكن هناك ذلك الإعجاب الواضح الذي يظهر في نظرات معظم الرجال. أعادت نظرها إلى صحن الجبنة وتشاغلّت بالأكل. ستريه أنه لا يستطيع ازعاجها.

قالت له:

«سأبشر العمل في المكتبة بعد الفطور».

ونظرت إليه مباشرة بعد أن استعادت رباطة جأشها.

«ممتاز. واعتقد أن لوري سيكون هناك للمساعدة. على فكرة كيف تسير أمور العمل؟».

«على ما يرام. وهو يساعدني كثيراً. لقد اكتشفت أن ترتيب الكتب أمر مثير للاهتمام أكثر مما كنت أتصور».

وقطعت جملتها. لماذا تزج نفسها بأخباره عن العمل؟

ابتسم وكأنه يشجعها على المضي في حديثها:

«أذن أنت مستمتعة في عملك؟».

انه قادر على استفزازها بمجرد كلمة يقولها او تعبير يظهره . . . والأسوأ من ذلك انه يعي قدرته تلك. وقد ادركت فانيسا انه تعتمد الاستفزاز الجديد.

«ولماذا لا؟ فالكتب مثيرة للاهتمام». وتابعت ببرود «ام انك لا تجدها مهمة فعلاً؟».

هز رأسه موافقاً: «انا مهتم جداً، خاصة بالكتب التي تتحدث عن الدول الأجنبية. . . والتي ستجدين عدداً كبيراً منها في المكتبة».

اجابته وقد نسبت استفزازه السابق: «لقد فرزت عدداً منها من بين الكتب التي احصيتها حتى الآن». وفكرت في نفسها انه يبدو جذاباً جداً في بعض الأحيان. وتابعت:

«احد هذه الكتب قديم جداً وبحالة سيئة للغاية». «ان بعض الكتب قديمة ومغطاة بالغبار. لذلك اقترح عليك ان تبقي الضمادة الى ما بعد انتهاء العمل ثم تغيرها مساء».

نظرت الى يدها وقد اعجبها الاقتراح. قالت: «سأفعل ذلك».

«ولا تحاولي ان تحملي الكتب بيدك المصابة، ليس خلال اليومين المقبلين في اي حال».

«لن افعل. اريد ان اسأل: هل تعرف ما هي ساعات عملي غداً باعتبار انه السبت؟».

«لا. على كل مستفهمين مع السيد ماكلين حول ذلك، فهذا ليس من اختصاصي. لكني لا اعتقد انه سيصر اذا ما اردت الراحة غداً. هل هناك مكان محدد تريدين زيارته؟».

نظرت اليه: «تقصد زيارة احد ما؟ لا، فانا لا اعرف احداً هنا. لربما خرجت في نزهة لاستكشاف الريف الاسكتلندي. . . وهذا كل شيء».

رفع احد حاجبيه قليلاً وهو يقول: «وحده؟ حتى بعد الذي تعرضت له مؤخراً؟».

«لا اعتقد انني سألتقي الشابين مجدداً، على الأقل ليس في الجوار».

واعترف قائلاً:

«معك حق. فلم يحصل ان حدثت مثل هذه الأمور في المنطقة. لكن من الممكن ان تضيعي في الريف الواسع!».

ابتسمت وهي تقول: «هل لديكم خريطة؟ صدق او لا تصدق، لقد جئت من لندن الى هنا مستعينة بالخريطة فقط. والواقع انني خبيرة في قراءة الخرائط واشارات السير».

وابقت الابتسامة على شفيتها لكي تشعره بأنها لا مبالية. ضحك كال عالياً:

«انا متأكد من خبرتك». ثم رفع وعاء القهوة وسألها: «مزيد من القهوة؟».

«نعم». وراقبته وهو يسكب القهوة ثم يضيف بعض الحليب. وفجأة انفتح الباب ودخل رجل في الستينات من العمر، طويل القامة واشيب الشعر. ولم تكن فانيسا بحاجة لمن يخبرها بان هذا الرجل هو جدّها.

٥- المواجهة الأولى

خشيت فانيسا ان تظهر على وجهها آثار الصدمة التي اصابتها، في حين وقف الرجل عند الباب لثوان معدودة. احسست بانها ترى والدها مرة أخرى لكنه أكبر عدة سنوات. كل شيء بدا لها مألوفاً: الطريقة التي يقف ويمشي فيها، الوجه النحيف ذو التقاطيع الحادة، والعينان الزرقاوان النافذتان تحت حاجبين كثيفين. وأخيراً تكلم:

«ها انتنا هنا معاً...»

وحتى صوته بدا مألوفاً بحيث شعرت برغبة في القفز اليه واخباره عن شخصيتها... لكنها تمالكت اعصابها، فقد كان كال يراقبها، ثم استدار الى الرجل القادم ووقف له.

سار اندرو ماكلين باتجاههما:

«صباح الخير يا كال».

ثم حول نظرتة الحادة الى فانيسا وقال:

«صباح الخير يا آنسة كوليتز».

اضطرت فانيسا الى مصافحته عندما استدار نحو الطاولة، فأعترضت له لأنها استعملت يدها اليسرى... وكانت ساقاها ترتجفان.

«هل تريد فنجاناً من القهوة يا سيد ماكلين؟».

سأله كال وهو يسحب له الكرسي حول المائدة.

«طبعاً. لقد شربت فنجاناً في غرفتي ولكن لا مانع عندي من فنجان آخر».

استدار نحو كال الذي انشغل بسكب فنجان القهوة، ثم التفت نحو

فانيسا مرة أخرى.

«اعتذر لأنني لم اكن هنا لاستقبالك. وانمى ان يكون كال قد قام بالواجب. هل جال بك في البيت؟».

«اجل، شكراً لك. كنا نتحدث عن أهمية الكتب الموجودة في المكتبة».

«اذن انت تجدينها ملفتة للنظر؟ هذا جيد لأنني اؤمن دائماً بأنه من الافضل للانسان ان يعمل في المجال الذي يحبه. هل واجهتك اية مشاكل؟».

«كلا يا سيد ماكلين».

كان عليها ان تنطق اسمه- أو بالأحرى اسمها- في وقت ما. وكلما بكرت كلما كان الافضل. وعندما فعلت لم تجد الأمر صعباً كما كانت تتخوف.

«لكن حادثاً مؤسفاً وقع لديك! أنا متأسف لذلك».

كان الاهتمام الحقيقي واضحاً في صوته.

«كانت غلطتي في الأساس. وانا متأكدة من انها ستتحسن خلال ايام قليلة... والحادث لن يؤثر على استمرار العمل».

اعتقدت في البدء انها لن تستطيع التحدث اليه بشكل طبيعي، لكنها استطاعت. وكانت ستجد الأمور أكثر سهولة لو ان كال غير موجود، هذا الرجل غير المتوقع الذي خلق لديها شعوراً بالذنب وعدم الارتياح والذي يبدو انه يستمتع بذلك.

وهنا تدخل كال:

«لوري يساعد الانسة كوليتز الآن».

«حقاً؟».

اعطاها جدها ابتسامة خفيفة وقال:

«يظهر انني أسأت فهمه، لقد رفض في البدء باعتباره مشغول جداً».

ولعله اكتشف انه يستطيع تدبير امره في اي حال».

ولم يكن في صوت كال اي معنى، لكن فانيسا فهمت مقصده وتمنت لو انه يغادر الغرفة. والآن، بعد ان زالت صدمة رؤية جدها لأول مرة، وجدت نفسها تراقبه في محاولة لتبين ملامحه بعيداً عن اية مشاعر شخصية، كما لو انه غريب تماماً. فهذا ما يجب ان تفعله اذا ارادت ان لا تنكشف قبل

ان يحين الموعد الذي لم تحدده بعد.
اكتفت فانيسا باحتساء قهوتها بينما كان اندرو ماركين يسأل كال عن
احوال البيت وعن الضيفتين اللتين زارتاه امس.
رد كال:

«لقد انزعجتا قليلا لأنك لم تكن هنا، لكنني حاولت جهدي ان اهتم
بهما».

التفت الى فانيسا مبتسماً، فردت عليه بنظرة باردة.
«سأتصل بهما هاتفياً في وقت لاحق. لم يكن بالامكان الحضور امس،
فالرحلات من باريس محجوزة كلها».
ابتلع آخر رشقة من قهوته ووقف قائلاً:
«يجب ان اذهب لاداء بعض الأشغال. اراك فيما بعد يا آنسة كولينز».
وغادر الغرفة مثل جندي طويل يسير ثابت الخطى. خيم الصمت بعده
للحظات، ثم نهضت فانيسا:
«يجب ان ابدأ العمل».

وفجأة خطر على بالها خاطر. التفت الى كال وسألته:
«ماذا عن الغداء؟».

نهض ببطء وهو يقول:

«الغداء؟ ماذا تقصدين؟».

كانت تود ان تقول له: انت تعرف تماماً ما اقصد، لكنك تجتهد متعة في
الخبطة الأمور بالنسبة لي. لكنها قالت:

«اقصد اين سأتناول الغداء، في غرفتي؟».

رفع حاجبيه ببطء:

«هنا مثلياً فعلت امس».

تنفست فانيسا بعمق وهدوء:

«لقد عاد السيد ماركين الآن. كان لطفاً منك ان تدعوني الى غرفة
الطعام اول مرة، لكنني مجرد موظفة في هذا البيت واتوقع ان...».

«موظفة؟ يا لها من طريقة رائعة للتعبير عن الذات! صحيح انك
موظفة، لكن هل تعتقدين ان ذلك يعني دعوتك الى المطبخ لتناول الطعام
في احدى زواياه؟».

احسنت بان دمه يغلي وهي تكبح جماح غضبها. يا له من رجل مكابر
عنيد.

«انا متأكدة انك تعرف ما قصدت. انت ضيف هنا، ولا اعتقد انك
تقدر موقفني».

«الا اقدره فعلاً؟».

وضاقت حدقتها بغضب وهو يضيف:

«ستفاجئين اذا عرفت ان السيد ماركين سيندهش، بل سيفضض، اذا
ما اقترحت تناول طعامك في اي مكان آخر».

ولم يعد في يدها حيلة. كيف يمكن ان تخبر رجلاً كهذا بانها لا تريد ان
تأكل معه لأنه يخيفها؟ انها لا تستطيع، وعليها قبول الواقع. وبدون ان
تنفوه بكلمة استدارت خارجة من الغرفة. وقبل ان تصل الى الباب كان هو
هناك اولاً، وقال لها:

«اسمحي لي ان افتح لك الباب».

«شكراً لك».

وخرجت بسرعة بدون ان تنتظر لترى ما اذا كان يلحقها، قاصدة المكتبة
لتبدأ العمل. فهناك، وهناك فقط، ستجد نفسها قادرة على التفكير في
الرجل الذي التقت لأول مرة اليوم، الرجل الذي هو جدها ولكنه لا يعرف
ذلك.

اغلقت الباب وراءها ورمت الحقيبة على احد المقاعد. ارتدت الرداء
الواقوي وتساءلت عما اذا كان لوري سيأتي لمساعدتها، ومتى؟ احسنت ان

الحادث الذي جرى بينها اصبح من الماضي، مع انه وقع بالأمس فقط.
وكم تتمنى الآن لو انه لم يحدث ابداً! لقد عمل بنشاط وقدم مساعدة

قيمة، لكنها بغنى عن اية اشكالات جديدة قد تزيد في اضطرابها الداخلي.
ولذلك قررت ان تقمع على الفور اية محاولة جديدة منه، اذ تكفيها المشاكل

مع كال وظهور جدها المفاجيء...
كانت منهكة في العمل عندما قرع لوري الباب ودخل، حيثه بابتسامة

صداقة وقالت:

«صباح الخير يا لوري».

«صباح الخير».

ركز نظره على يدها المصابة وقال:

«كيف حالك اليوم؟»

«افضل قليلا، شكراً لك».

لكنها عادت وتساءلت:

«كيف عرفت؟»

«اذا قضيت وقتاً طويلاً هنا فستكتشفين ان الاخبار تنتقل بسرعة في

البيت. على كل، الطاووس يفزع كل الناس. المهم ان تكوني حذرة فيما

يتعلق بيدك، وانا سأقوم بكل ما يلزم».

«شكراً لك. يجب ان نعمل اولاً على الكتب التي انزلتها، اذ انني كنت

بطيئة بالأمس».

من الافضل لها ان تركز الحديث على العمل والكتب. ووجدت فانيسا

الفرصة لتكتشف الجانب الآخر من لوري الغارق في غبار العمل. انه يجب

الكتب فعلاً، كما انه يجهد للتصرف بشكل طبيعي وكأنه احس مزاجها

المتعكر اليوم.

مضى قبل الظهر بسرعة، بحيث فوجئت فانيسا عندما فتح الباب

ودخل جدها الى المكتبة. وعندما شاهده لوري توجه للسلام عليه.

«صباح الخير يا سيد ماكلين. ان شاء الله كانت رحلتك موفقة؟».

«اجل، وشكراً يا لوري. يظهر انك مشغول ايضاً. هل تعرف كم

الوقت الآن؟».

واندهشت فانيسا عندما عرفت ان الساعة تجاوزت الواحدة، وعليها ان

تغتسل بعد. نهضت عن الأرض وهي تقول:

«انا آسفة، لقد استغرقنا في العمل».

«اعرف ذلك، لكن يجب ان تأكلي يا ابنتي. فهياً بنا. الكتب ستظل هنا

عندما تعودين!».

وانتظر على الباب حتى خرجا.

حمل لوري سترته ووقف ينتظر خروج فانيسا لكن كمّ الرداء الوافي

علق بالضمادة، بحيث اضطر لوري الى مساعدتها.

«شكراً لك».

وادركت فانيسا ان شيئاً مما دار لم يفت جدها. قطعت المسافة الى غرفتها

ركضاً ثم غسلت وجهها وفكت الضمادة عن يدها وعادت مسرعة الى غرفة

الطعام لتجد ان الرجلين على وشك الانتهاء من الحساء.

«انا آسفة».

لكن اندرو ماكلين قاطعها بإشارة من يده وقال:

«لا ضرورة للاعتذار. من الجميل ان نجد انساناً يحب عمله الى الحد

الذي ينسى معه الوقت». ثم نظر الى كال وقال «ما رأيك أنت؟».

«طبعاً... طبعاً».

كانت عيناه تراقبان فانيسا وكأنها تسخران منها. ثم اضاف فجأة:

«هل عملت من قبل في مثل هذا المجال؟».

«كلا».

لقد رددت القصة المختلفة في ذاكرتها لأكثر من اسبوع، والآن ستري

ان كانت ستبدو معقولة في نظر الآخرين. يجب ان لا تظهر شعورها

بالقلق:

«عملت سكرتيرة لمدة عامين، ثم قررت التغيير بسبب بعض المشاكل في

العمل».

حتى الآن القصة حقيقية تماماً، ولكنها لن تخبرها عن طبيعة المشاكل

التي واجهتها:

«اخبرني صديق يعمل في مكتب محاماة يدعى مورتون وسميث

وكيمبل».

وترددت امام هذه الأسماء كي تبدو غريبة عنها، ثم تابعت:

«عن ان سيداً اسكتلندياً هو انت» وأشارت مبتسمة الى السيد ماكلين،

«يريد ان يعيد ترتيب مكتبته. وقد تقدمت الى هذه الوظيفة لأنني احب

الكتب».

وضع جدها ملعقة الحساء من يده وتناول قطعة خبز وقال:

«اذن انت تعرفين شخصاً يعمل في مكتب المحاماة؟».

«اجل. انها السكرتيرة. ليست صداقة حميمة بقدر ما هي معرفة

عادية».

ولم تكن فانيسا كاذبة، اذ ان بات جونز تعمل سكرتيرة في المكتب،

وهي لا يمكن ان تفضح حقيقةً. مع ان المعلومات الحقيقية جاءت من

السيد مورتون نفسه .

«وهل أخبرتك عن أشياء أخرى؟» .

اطلق هذا السؤال تجاهها في حين كان كال يراقبها . صحيح انه لم يكن ينظر اليها مباشرة ، الا ان تركيزه على سماعها كان واضحاً للغاية .

وقالت اول كلمة :

«لا . لكنني لم افهم ، هل تقصد أشياء أخرى عن العمل؟» .

حك اندرو ماكلين خده وقال :

«لا . لا شيء . والآن أخبريني يا فانيسا ، لا مانع عندك بان اتاديك باسمك المجرد؟ كيف ترين الكتب؟ اقصد هل هناك تلف؟» .

استمعت اليه بتمعن . اسئلته كانت معقولة وموزونة ومركزة حول العمل الذي تقوم به . . . لكنها احست بجو خفي من التوتر يسيطر على الغرفة ، وهي تعرف مصدره . كان كال يفكر بعمق . اية اسئلة او اجوبة سيطرحها هذا الرجل؟ مهما كانت طبيعتها فانه لن يلقيها الآن . بل سينتظر الفرصة المناسبة للإيقاع بفانيسا كما فعل في اليوم السابق . راقبته بحذر . يجب ان تكون مستعدة له في المرة المقبلة . لكن متى سيكون ذلك؟

أخبرها جدها في وقت لاحق من اليوم نفسه انها حرة يوم السبت . كانت الساعة الثالثة تقريباً عندما دخل عليها المكتبة وهي وحدها ، اذ ان لوري لم يكن قد عاد من الغداء بعد . ولاشغالها في العمل لم تنبئها الى دخوله ، لكن سعلة خفيفة منه جعلتها تلتفت لترى وجهه النحيف . وكما في كل مرة تراه ، احست برعشة من الاشمزاز ممزوجة بمشاعر الخوف . ماذا لو اكتشف الحقيقة قبل ان تكون مستعدة؟

قالت وهي تضع القلم من يدها :

«أنا آسفة . هل تريدني؟ لم اكن ادري انك» .

«لقد دخلت بهدوء حتى لا ازعجك» .

وابتسم لها ، انها ابتسامة ايها بالذات . ثم تابع يقول :

«ثم وقفت اتأمل باعجاب النشاط الذي تمارسين به عملك» .

نظرت فانيسا الى لائحة الكتب الموضوعه على الطاولة . لم يكن عندها ما تقول ، اذ ان عقلها تحول فجأة الى لوح ابيض فارغ . وفكرت انها ستغفل حكماً اذا ظلت على هذه الحال خلال الايام القليلة المقبلة .

لم ينتبه اندرو ماكلين الى صمت فانيسا بل تابع قائلاً :

«انت حرة غداً ، وبالطبع الاحد ايضاً . اعرف ان وسائل الترفيه غير متوفرة في المنطقة ، لكن ارجوك ان لا ترددي في استعارة اي كتاب تودين الاطلاع عليه» .

وعندها زال الجمود عن فانيسا وتذكرت .

«اجل ، هناك مجموعة من الجرائد القديمة موضوعة في صندوق كرتوني دلفي عليها لوري . . . واتمنى ان اطلع على البعض منها» .

تغير وجه ماكلين القوي بسرعة . وبدت على ملامحه تعابير الانشراح والسرور الطفولي .

«يا الله . . . الجرائد . انها بحاجة للترتيب ايضاً ، هل تعرفين ان لدي نسخاً عن صحيفة تدعى اوكسفورد غازيت يعود تاريخها الى العام ١٦٦٥ . الحقيقة انني نسيت كل شيء عنها» .

وهز رأسه متابعاً :

«اتمنى ان تقومي بترتيب هذه المجموعات ايضاً . لا شك ان سنوات عديدة مضت منذ . . .» .

وأطرق فجأة ، وبدت على وجهه ملامح الحزن . لم تشأ فانيسا ان تحرق جو الصمت لأنها شعرت بوجود هذا الحزن المفاجيء . . . فحبست انفاسها وانتظرت ، فهي تعرف لماذا!

«مضى زمن طويل . . . طويل!» .

مرت لحظات الحزن وعادت الامور الى طبيعتها .

«بالطبع . افعلي ما يحلو لك . واذا اردت ان تحملي بعضها الى غرفتك ، فكال . . .» .

والتفت نحو الباب حيث كان كال واقفاً .

«لقد كنت أقول لفانيسا انها تستطيع استعارة اية صحف . فهل لك ان تحمل الى غرفتها كل الصحف التي تريد؟» .

«بالطبع» .

ونقل كال نظره من فانيسا الى جدها و اضاف :

«أنا آسف للدخول عليكما هكذا ، لكن السيد ماكري على الهاتف ، وقد حولت الخط الى مكتبك» .

«شكراً».

وخرج اندرو ماكلين من المكتبة تاركاً فانيسا وكال معاً. استدارت بسرعة الى عملها لأنها لم ترد له ان يرى وجهها خوفاً من ان يلحظ المشاعر التي اختلجت فيها قبل قليل... كما انها تحتاج الى وقت للتفكير. قاطعها الصوت العميق الناعم:

«هل تريدني الصحف الى غرفتك الآن؟».

«لا. شكراً لك».

لم تلتفت اليه. لكنها احست بحركاته وهو يتوجه نحوها، ثم ادركت انه بات خلفها تماماً.

«هل تريد شيئاً مني؟».

«كلا، أتأمل ما تقومين به فقط».

كان الصوت ينبعث من وراء كتفها. واحست فانيسا بانها تخطئ بجمودها هذا، لذلك طوت اللاتحة بسرعة واستدارت لمواجهته. قالت:

«انني اسجل الكتب يا سيد غرين».

سحب كرسيًا مجاوراً وجلس قبالتها وفي عينيه نظرة سخرية واضحة:

«السيد غرين؟ الا تفضلين اسم كال؟».

«ليس بالضرورة. فانا لا اعرفك تماماً».

اجابته بهدوء، لكنها تعجبت مرة اخرى كيف يشعرها هذا الرجل بالضعف عندما يكون الى جانبها... تماماً كما هو حاصل الآن.

قال وهو يحرك يديه في جيبي سرواله:

«لكنك تنادين لوري باسمه الأول فقط!».

«هذا شأني وحدي».

ونظرت مباشرة الى كال غرين وهي تبتسم بهدوء وشماتة. انها تدرك تماماً ان ذكر لوري ماكينزي يثير غضبه بشكل سريع وفعال. وازافت تقول:

«ان امورنا تسير على ما يرام».

ارتفع حاجباه الاسودان، لكن وجهه الاسمر ظل دون تعابير واضحة:

«بالطبع، اما امورنا نحن فليست كذلك؟».

«لا اعتقد».

راقبته وهو يفتح علبة سكاثر، وعندما قدم لها سيكارة هزت رأسها بالرفض وقالت:

«كلا. شكراً لك». ثم اضافت «الحقيقة انك تحاول دائماً ان تكون قاسياً وفظاً معي».

وتابعت في نفسها تقول «بينما المطلوب مني ان اظل هادئة».

قال:

«اعتقد انك تتحدثين عما جرى بعد ظهر امس!».

اشعل سيكارتته من الولاة التي اضاءت جانباً من وجهه، فبدا الجانب الآخر اكثر سمرة وصرامة.

«اجل».

من الأفضل ان تنقل المعركة الى معسكر الخصم، فلا شك انه يعد شيئاً ما لوقت لاحق. ففي المكتبة، تشعر فانيسا لسبب من الاسباب بانها على ارض آمنة، اكثر اماناً من تلك التلة الخضراء المشمسة التي اشعرتها بانها ضعيفة للغاية خاصة بعد احتراق يدها. وانتهت كلامها بالقول:

«لقد كنت فظاً بشكل يفوق التصور خاصة اني كنت في حالة يرثى لها بسبب يدي. واعتقد انك تعمدت ذلك».

«اجل، تعمدت ذلك».

تعجبت. كانت تتوقع منه ان ينفي. لا ان يعترف بسهولة، رمته بنظرة حادة، وظلت للحظات عاجزة عن الكلام، ثم أطلقت لسانها:

«اذن، كان موقفك سخيفاً وغيباً».

«انا اوافق».

سحب نفساً عميقاً من السيكارة، والفت يبحث عن منفذتها ولما وجدها وضعها الى جانبه، ثم قال:

«لكني لدي اسبابي الخاصة».

«حقاً، وهل لي ان اعرف ما هي هذه الاسباب؟».

اجابها بهدوء مثير:

«انت تعرفينها تماماً، اليس كذلك؟».

وعاود فانيسا ذلك الشعور البغيض بانها على وشك ان تفقد السيطرة

عل نفسها. لكنها هي التي بدأت المعركة وعليها ان تستمر فيها:

«هل تعتقد اني لصة او اي شيء مماثل؟»

«لصة؟» ردد الكلمة وكأنه يفكر فيها. ثم ابتسم ببطء شديد «لا، ليس كذلك، على الاقل لم اعتبرك لصة... حتى الآن».

اشتعلت بالغضب بفعل الطريقة التي اطلق فيها الكلمة الاخيرة. وخرجت التعابير من فمها قوية قاسية:

«وماذا بعد؟»

اجابها قائلاً:

«لست ادري، ولكنني سوف اعرف!».

ردت عليه بلهجة أمرة:

«ولماذا لا تغادر هذه الغرفة فوراً وتتركني لوحدي؟»

لست مضطرة لسماع اهانتك، بل لست مضطرة لسماع اي شيء منك. هل تفهم؟»

وقفت في وجهه وعيناها تقدحان شرراً، وتنت لو انها رجل لتلقنه درساً لا ينساه. ويبدو ان بعضاً من افكارها وجد صدى لديه بحيث وقف في مواجهتها بدون ان يتخلى عن هدوئه. والان عليها ان تنظر الى اعلى كي تراه، وهذا شيء تكرهه لأن طوله الاضافي يشعرها بانها اصغر منه واضعف ايضاً:

«اذهب من هنا ارجوك. فهذا مكان عملي، ولا استطيع ان اعمل ما دعت أنت هنا».

«لا ضرورة للغضب. سوف اذهب... لكن بعد لحظات. ستكونين مجنونة اذا فكرت بطردي بالقوة».

«لو كنت رجلاً لفعلت».

تسارعت نبضات قلبها غضباً واضطرت الى الابتعاد عنه لأنها لم تعد قادرة على مواجهته. لكنه وضع يده على ذراعها واعادها الى مكانها.

«قولي لي...»

لم تدر ماذا كان في صوته، لكنها قاطعته وهي تلوي اصابعه بشدة حتى اطلق سراحها.

«ايك ان تلمسني. انا اكرهك واكره لمسائك».

«فهمت، تحيين لمسات لوري فقط؟»

«كيف تجرؤ...»

قاطعها قائلاً:

«دعك من هذا. لا تقولي لي انه لم يعانقك قبل لحظات من دخولي

عليكها...»

«صحيح!!»

ادركت على الفور ان خديها تضرجا بالدم، مما جعل كال يضحك.

«لقد كان الامر واضحاً تماماً. عناق صغير عابر. لنرى كيف تقارنين

ذلك العناق بهذا!!»

وقبل ان تستطيع الحراك وضع ذراعيه حولها. وفجأة أصبحت الغرفة مظلمة لأنه صار قريباً جداً منها، الى حد انها ضاعت بين ذراعيه. احسّت بالدفء في صدره. كان لطيفاً وهادئاً بعكس ما توقعت. وطالت لحظة العناق بدون ان تبدي مقاومة. وادركت على الفور انها مرتاحة للامر، فاعتراها الخوف بحيث استجمعت شجاعته وابعده عنها.

«ايها المتوحش».

ورفعت يدها الى وجهها تريد حماية نفسها من هجوم آخر وشيك.

غابت عيناه الزرقاوان خلف سحابة سوداء، ولم تستطع فانيسا ان تفهم تعابير وجهه. ظلاً للحظات ثقيلة صامتتين في مواجهة بعضهما البعض قبل ان يغادر كال الغرفة. واخيراً أصبحت لوحدها. وظلت واقفة في مكانها لعدة ثوان. فالصدمة منعته عن الحراك، وفي الوقت نفسه جعلت ساقها ترتجفان بشدة. واخيراً استعادت روعها ورمت نفسها في اقرب مقعد. نشاغلته ببطاقة مرمية على الطاولة لكن فكرها كان في ذلك العناق والشعور الذي ملأها خلاله. لم تكن مستاءة او متضايقه حسب ما توقعت. فالعناق كان جميلاً جداً... هذا هو الوصف الوحيد المناسب له.

لمت بصوت منخفض «لا شك انني مجنونة!».

الموقف سيكون محرجاً اذا عرف تفكيرها. انها لا تستطيع ان تفعل شيئاً الآن. كان عليها ان تصفحه حينها كرد فعلي طبيعي من امرأة ترفض العناق بالقوة. لم تصفحه، ليس لخوفها من ردة فعله، بل لأنها لم ترد ذلك. قررت العودة الى العمل فوراً وتناسي ما قد حدث. النتيجة الايجابية

الوحيدة كانت انه توقف عن طرح اسئلته المحرجة. لا شك انه سيعيد طرحها في وقت لاحق، لكن متى؟ اكدت لنفسها هامة «ساكون جاهزة له المرة المقبلة! ساكون مستعدة تماماً».

وتساءلت عما اذا كانت تحاول اقناع نفسها بهذا القرار. انتهى يوم العمل وحان وقت العشاء. تمت فانيسا لو ان كال وجدها يقرران تناول الطعام خارج البيت... ولكن المعجزة لم تحصل، وعندما وصلت الى غرفة الطعام وجدت الرجلين يتحدثان وهما بانتظارها. استدار جدها مبتسماً وهي تدخل الغرفة.

«ها انت هنا اخيراً. كنت سأقول لكال...»
قطع كلامه عندما وقعت عيناه على الفستان الرمادي الذي ترتديه.
«تبدلين جميلة جداً في هذا الفستان. هل تريدين تناول اي شيء؟»
«شكراً لك. اريد كوباً من عصير التوت من فضلك».
«بالطبع، وانت يا كال؟».

كان كال قد توجه الى الطاولة لتناول الكوب. وراقبته فانيسا وهو يعد كوباً لها وآخر له. ماذا حل في نظراته اليها عندما دخلت الغرفة؟ ستعرف فوراً، فقد انهي اعداد الكوب واستدار نحوها ليقدمه لها. كان لا مبالياً تماماً، ولم يظهر شيء على ملامحه يمكن ان يعطيها فكرة عما يفكر. فقط ايماءة مؤدبة وهو يقدم لها الكوب:

«تفضل يا آنسة كولينز».
«شكراً لك».

رد بانحناء خفيفة من رأسه، وقد كانت خفيفة بحيث لم تشعر فانيسا بها، وانما لاحظت طرف ابتسامة ساخرة لم تستمر الا للحظات، قبل ان يستدير لمتابعة الحديث مع الرجل العجوز. بعد ذلك دخلت السيدة بانكس تدفع امامها عربة الأكل فتوجه الجميع الى المائدة. حبذا لو لم يكن موجوداً لكانت مهمتها اسهل بكثير. لكنه سيبقى في البيت لفترة غير محددة، ومن الافضل لها ان تعتاد هذا الواقع.

جلسوا لتناول الطعام وهم يتبادلون الاحاديث العامة المسلية. وفكرت فانيسا كم ستكون الأمور مختلفة لو انها موظفة حقيقية وليست حفيدة صاحب البيت. فهي قد بدأت تتمتع بعملها في الكتب الى جانب اعجابها

بالبيت. لكنها هنا في مهمة وستواصل لعب دورها تنفيذاً لوعده قطعتة على نفسها من اجل والدها المتوفي. نظرت مبتسمة لترد على سؤال وجهه كال بدون ان تظهر اي مشاعر تعتمل في نفسها، وكان سؤاله عما قررته بالنسبة الى عطلة نهاية الاسبوع.

طيلة فترة العشاء كانت فانيسا تراقب جدها بدون ان يلاحظ ذلك، تتأمل حركاته وتصرفاته والطريقة التي يتكلم بها. حاولت ان تبعد عن ذهنها الصورة المسبقة التي رسمتها له من خلال احاديث ابيها. لم تكن المسألة سهلة، فقد تصورت رجلاً قاسياً متوحشاً، لكن اندرو ماكلين هذا غير الصورة تماماً، فهو لطيف معها- هي الموظفة- الى حد انه يصبر على ان تتناول طعامها الى مائدته.

وقبل انتهاء العشاء اختلست فانيسا نظرة الى جدها. سمعوا رنين جرس الهاتف من بعيد، ثم دخلت السيدة بانكس وابلغت السيد ماكلين ان هناك مخبرة هاتفية عاجلة له.

«من يطلبني؟»
«قال ان اسمه ماكوليامز».
وتنحنحت عندما لفظت الاسم، وكأنها تريد ان تقول انه غير حقيقي.
تصلب وجه اندرو ماكلين عندما سمع الاسم. وخيل لفانيسا انها شاهدت لمحة من الغضب لم تدم الا لحظات. اشتدت عضلات فكيه وهو ينظر الى كال. سألته هذا الأخير بهدوء:
«هل تريدين ان ارد؟»
«كلا».

جاء الجواب مختصراً أمراً وعالياً، ثم خرج من الغرفة. ركزت فانيسا نظرها في صحنها، لكنها لم تستطع منع نفسها من النظر الى الرجل الجالس قبالتها. كان يراقبها بدون ان يظهر اية مشاعر. وفجأة خفق قلبها بفزع لا تفسير له... فهي لا تستطيع ان تفهم معنى نظراته عندما يكون هكذا. ففي عينيه عمق سحيق من الصعب كشفه بسهولة، وقد ادركت ذلك منذ اليوم الاول للقاءه. احست بخفقات قلبها تتسارع، فقالت بدون وعي اول كلمات خطرت لها:
«لماذا تنظر الي هكذا؟».

أجابها بصوت ناعم وساخر:

«هل النظر ممنوع؟»

«أجابته:

«أنت تحديق في، وأنا لا احب ذلك».

«لسوء الحظ، هناك اشياء كثيرة لا تحبها في لكنك ستتعلمين التأقلم اذا

ما بقيت هنا».

ولاحظت انه شدد كثيراً على كلمة «اذا».

رفعت فانيسا حاجبها وقالت:

«لا تخف، انا باقية هنا ما دام عملي منتجاً وناجحاً، وانا متأكدة منه.

على الاقل السيد ماكلين لا يشكو مني، وهو وحده صاحب العمل».

وقالت في سرها «ولذلك يجب ان تسكت نهائياً».

ابتسم كال قائلًا:

«انا أكيد ان عملك ممتاز من خلال ما رأيت حتى الآن. لقد تأثرت

بنشاطك، لكنني اعتقد انك تعرفين تماماً ما انت بصدده».

في هذه اللحظة عاد جدها الى الغرفة، فتوقف الحديث بينها عند هذا

الحد. نظر السيد ماكلين باتجاه كال ويدا على وشك ان يقول شيئاً لكنه بذل

جهداً للسيطرة على نفسه. شعرت فانيسا بانه غاضب، وادركت انها -لولا

وجودها- لكانا قد تحدثنا عن الاتصال الهاتفي. نظرت الى الساعة

ونهضت. لقد انتهوا لتوهم من العشاء، وتريد ان تترك الرجلين وحدهما

للتباحث في امورهما، وهي تعرف انها يرغبان في الانفراد ايضاً.

وعندما استأذنت بالانصراف بعد لحظات، لم يبد احد منهما اي

اعتراض. هرعت الى غرفتها بهدوء وخفة، ولما وصلتها تذكرت ما قاله كال

عن انها تعرف تماماً ما هي بصدده. الاكيد انه لم يكن يقصد عملها في

المكتبة. كم اصبحت تكرهه الآن.

مرت عطلة نهاية الاسبوع على احسن ما يرام. ففي يوم السبت اخذت

فانيسا خريطة اعددها لها جدها ووجدت قرية جميلة تقع على الطرف الآخر

من الوادي، وهناك امضت فترة بعد الظهر تراقب اطفالاً صغاراً يلعبون في

حديقة تمتد طرفها حتى الشاطئ. رجعت الى دينستون هاوس وقت

العشاء وقد انعشتها مناظر الريف الخلابة. وبعد تناول الطعام شاهدت

التلفاز مع جدها. كانت تفضل الا تكون معه، لكنه لم يترك لها الخيار.

وبالرغم من شعورها بالانزعاج في بادىء الامر الا انها فوجئت عندما

احضرت السيدة بانكس القهوة بان الساعة قد شارفت منتصف الليل.

كان كال قد غادر البيت بعد العشاء مباشرة. صعدت الى غرفتها

لتحضر حقبيتها فسمعت صوت محرك سيارة يزار نزولاً باتجاه مدخل

البيت. تساءلت عما اذا كان ذاهباً للقاء هيثر الجميلة. الارجح انه

سيفعل. وفجأة وجدت نفسها تتساءل ايضاً عما اذا كان يعانق هيثر

بالطريقة التي عانقها فيها اليوم. ابتعدت عن النافذة بنزق وحملت حقبيتها

ونزلت الى الصالون. يا لها من افكار سخيفة تضج في رأسها.

كانت مستلقية في فراشها عندما سمعت صوت محرك سيارة الجاكوار

امام البيت. ومن خلال اشعة القمر الفضية المتسللة عبر الستائر المرفوعة

تبينت فانيسا ان الساعة تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل. ولشدة

استغرابها، اكتشفت انها ظلت تنتظر حتى سماع هذا الصوت. والان،

بعد ان اطمانت الى عودته، يمكنها ان تذهب الى النوم... وهكذا صار.

الايام القليلة التالية كانت ايام عمل بالنسبة لفانيسا ولوري. ويقدر ما

وجدت نفسها غارقة في الكتب، وجدت افكارها مشغولة ايضاً بالرجل

المستحيل الذي اسمه كالوم غرين. اما مشاعرها تجاه جدها فكانت

متضاربة. لقد شاهدت منه ملامح من الوصف الذي اعطاه والدها

الراحل، لكنه في معظم الاحيان الرجل الطيب المرح. بدأت تشعر

بالارتباك الداخلي ليتها تستطيع الثقة بأحد كي تطلب منه النصح. وفي

بعض المرات كانت تحتاحها موجات من الندم، ولكنها لا تستطيع ان تبدل

شيئاً. الشخص الوحيد الذي يعرف سبب وجودها في دينستون هاوس

موجود في لندن، ومن الصعب ان يتعاطف معها. فقد رفض السيد

مورنون فكرتها من الاساس، والارجح انه سينصحها بترك المكان او

بالابلاغ عن الحقيقة قبل فوات الاوان. لكنها قطعت شوطاً بعيداً جداً

بحيث لم تعد قادرة على التراجع.

ترددت وهي ترجع كتابين قديمين جداً الى المكتبة، وقد اعترها شعور

غريب بالوحدة والانعزال. كان الوقت بعد الظهر من يوم جمعة بارد ومظلم

وليس كالايام التي سبقتة. الغيوم الداكنة تلبد وجه السماء واعدة بالمطر

الغزير. وثمت لو ان لوري يعود من الغداء بسرعة، خاصة انه يرافقها يومياً في عملها في المكتبة.

لقد أقامت مع لوري علاقة صداقة محبة. خلال اسبوع من العمل اليومي المتواصل. ومع ذلك لم تكن متأكدة من انه اهل للثقة، اذ شاهده عدة مرات وهو ينظر اليها نظرات تعرف معناها تماماً ولم تكن مهتمة للأمر، فقد اصبحت قادرة على التأقلم كونها غير مهتمة به كرجل. وباصرار شديد ابعدت صورة كال عن ذهنها. . . كال الموجود دائماً والذي يراقبها دون ان يبدو عليه ذلك.

دخل كال الى الغرفة في هذه اللحظات بدون ان يصدر اي صوت، وفوجئت فانيسا بوجوده فسقطت الكتب من يدها.

اقترب نحوها وانحنى يلتقط الكتب:
«يجب ان لا يرى الجدّ هذه الحادثة. فالكتب قديمة جداً ومهمة» سلم الكتب الى فانيسا وهو يضحك.

«شكراً لك» واستدارت نصف دورة وهي تقول:
«لو لم تتسلل الى المكتبة لما كنت اسقطت الكتب».
«هل كنت اتسلل؟»

نظر الى حذائه المطاطي الخفيف و اضاف قائلاً:
«لربما يجب ان انتعل حذاء التسلق عندما ادخل الى هنا. صحيح انه سيزعجني، لكنك ستعرفين انني هنا. الا تفضلين هذا الحل؟»
«بدون سخافات ارجوك!»

حاولت الوصول الى كتاب في الرف العلوي فلم تستطع رغم طولها، وكان هو اسرع منها اليه فناولها اياه.

سألها بعد ان تناولت الكتاب مستعملة يدها المصابة:
«يبدو ان يدك افضل اليوم؟»

«أجل. هناك ندوب حمراء فقط متزول مع الوقت».
«ستزول خلال اسبوع تقريباً. هل تستطيعين الآن اخذ اول درس من تمارين الدفاع عن النفس؟»

لم تستطع مقاومة العرض، ولم تكن ترغب في القبول ايضاً لكن الكلمات خرجت تلقائياً:

«هل الدروس للدفاع عن نفسي ضد اناس مثلك يريدون عناقني بالقوة؟»

ضحك كال غرين عالياً، فبانت اسنانه البيضاء اللامعة وسط وجه كان كل ما فيه يضحك، واعترف قائلاً:

«هذه فكرة ممتازة، ويجب ان اراقب نفسي جيداً، اليس كذلك؟»
شعرت بالضيق من استمرار الحوار، لذلك ابتعدت عنه لمتابعة عملها وهي تقول:

«اعتقد ان هناك اشياء كثيرة تحتاج الى ترتيب، لذلك يجب ان . . .»
وقاطعها قائلاً:

« . . . وخاتمة ايضاً؟»
ومع ان صوته كان ناعماً، الا انه اوقفها في مكانها.

ابتسمت بأفضل ما تستطيع وقالت:
«منك انت؟ ابدأ».

كانا يحدقان ببعضهما وقد خيم جو من التوتر الذي ينذر بالانفجار في اية لحظة. واعتقدت انه سيثير مجدداً موضوع شخصيتها الحقيقية لذلك سارعت الى القول:

«اذا كنت تريد تدريبي، فانا اقبل. لكنني لست افهم سبب الماحك!»

«لقد شاهدت تعابير وجهك عندما هرعت الى سيارتي الاسبوع الماضي. كنت عاجزة تماماً!»

«حسناً، كنت خائفة بالطبع. لكن . . .»
«لن تكوني في مثل هذه الحالة ابداً عندما انتهي من تدريبك. فمتى ابداً، غداً صباحاً؟»

وسأله بتعومة:
«الست مشغولة؟ أقصد غداً السبت!»

«لا شيء يستحق الذكر». و اضاف بلطف واضح «حسناً، سأراك في غرفة الرياضة بعد ساعة من الافطار».

ونساءلت باهتمام ملحوظ:
«ماذا يجب ان ارتدي؟»

لاح خيال ابتهامة على شفثيه وهو يقول:

«يمكنك ارتداء بذة التدريب الخاصة بالجيدو. هناك مجموعة منها
ساحضر لك واحدة عند الصباح، فذلك افضل من تعريض ملابسك
للشد والتمزيق. ومع ذلك يجب ان ترتدي قميصاً داخلياً تحت ملابس
الجيدو».

قالت وهي تضع الكتب على الطاولة:

«حسناً، هل يمكن ان اتابع عملي الآن؟».

«اجل. لقد جئت لابلغك انني والسيد ماكلين مستناول العشاء في
الخارج. وهو يسألك اذا كنت ترغبين في تناول العشاء في غرفتك؟».

«افضل ذلك».

ولكنها كانت تفكر بترده عندما نطق اسم السيد ماكلين، اذ بدا وكأنه
على وشك ان يضيف شيئاً ثم توقف. فماذا يريد ان يقول؟ ما هو الشيء
الذي يخفيه حتى الآن؟

ولم تأخذها افكارها الى ابعد من ذلك. فمن غير المعقول ان يعرف
شخصيتها الحقيقية. ترى هل يمكن ذلك؟

وعلى الرغم مما كان يدور في ذهنه، فانه لن يلح الآن، اذ هز رأسه مودعاً
وغادر الغرفة. ظلت فانيسا شاردة الذهن تراقب الباب المشرع. تساءلت
وهي تعض على شفثها السفلى عن المأزق الذي وضعت نفسها فيه وعما
تخبئه لها الأيام المقبلة.

أطل صباح يوم السبت مشرقاً ودافئاً، بعد ان رحلت غيوم الامس
بعيداً. استيقظت فانيسا وهي تحسّ بقلق خفي وغريب. ثم تذكرت ان
كال غرين سيعطيها اول درس في الدفاع عن النفس اليوم. لم تعد قادرة
على الثقة فيه فباتت تشك بكل ما يقوله او يفعله. ما هي خلفيات هذا
العرض؟ وظل السؤال يلح طيلة الوقت الذي امضته في الاستحمام
وارتداء ملابسها. عليها ان تستعد لأية اسئلة محرجة قد يطرحها، خاصة
انها سيكونان وحدهما في غرفة الرياضة.

ارتدت سترة صوفية بيضاء على فستان ازرق سماوي، وانتعلت
صندالا خفيفاً، ثم تركت شعرها الاسود حراً منسدلاً... واخيراً ألمسة من
احمر الشفاه، وها هي جاهزة الآن. كانت الساعة الثامنة والنصف عندما

نزلت الى غرفة الطعام. تعمّدت النزول باكراً كي تتناول افطارها وحيدة
اذا امكن، لكن كال غرين كان قد سبقها، بل وعلى وشك انهاء فطوره.
حيّاهما قائلاً: «صباح الخير».

«صباح النور».

وتناولت قطعة من الخبز بعد ان جلست في مواجهته.

رفع عينيه اليها وقال:

«تريدين بعض البيض باللحم؟».

«لست جائعة كثيراً».

سألهما بنغمة هادئة:

«هل انت متوترة الاعصاب؟».

نظرت اليه ببرود وقالت:

«متوترة الاعصاب؟ كلا. ولماذا التوترة؟».

«لا شيء. لكن يبدو لي انك - اعذري كلامي - شبه ضائعة».

«لا بد ان خيالك يزين لك الامور».

وتابعت حديثها بحذر بالغ لان عينيه بدأتا البحث في تعابير وجهها:

«لكن الحكمة تقضي بان لا اثقل معدتي قبل بدء التمارين».

«صحيح. انه موقف سليم جداً. ولذلك قررت البدء بالتمارين بعد

ساعة من الأكل».

«حسناً جداً. وبالنسبة الى البذلة الرياضية فارجو ان لا تزعج نفسك

باحضارها لي. سأرتديها تحت عندما انزل، فهناك مكان لتغيير الملابس،

ليس كذلك؟».

«عظيم. سأجهز لك واحدة، والان اسمحي لي ان اذهب لاستعد».

وقف واعاد الكرسي الى مكانه، ثم اضاف:

«ان يفطر السيد ماكلين معنا فقد اضطر الى مغادرة البيت باكراً. اذن

سأراك حوالى...». واختلس نظره الى الساعة وتابع «حوالى العاشرة الا

ربحاً في غرفة الرياضة؟».

«اجل».

وافته وهو يغادر الغرفة ثم سكبت لنفسها فنجاناً آخر من القهوة. كم

كانت غبية عندما قبلت عرضه في الأساس!

في تمام الساعة العاشرة الا عشرين دقيقة توجهت فانيسا الى غرفة الرياضة. ويعيداً عن ملامح الهدوء المرتسمة على وجهها، كان داخلها يعتمل بمشاعر التوتر والقلق والترقب. فمهما حدث، يجب ان تخفي احساسها الداخلي كي لا يشمت كال بها. لا تراجع الآن. ترددت قليلا امام الباب، اذ بمجرد دخولها الى الغرفة عليها ان تستمر في اللعبة حتى النهاية. استجمعت انفاسها وفتحت الباب بسرعة.

المكان غارق في سكون عميق، فكال غرين لم يأت بعد. تمعنت فانيسا في فرشاة الجيدو الموضوعة وسط الساحة وهي تتجه الى غرفة تبديل الملابس. وقبل ان تدخل تمهلّت، اذ انها سمعت ما بدا لها وكأنه صوت امام الباب الخارجي. وعندما لم يتكرر الصوت استدارت لتدخل، فاصطدمت مباشرة بالرجل الذي خرج لتوه من غرفة تغيير الملابس. امتدت يدا الرجل لاسناد فانيسا. كان يرتدي ملابس الجيدو البيضاء، التي طالما شاهدتها في الصور وعلى شاشة التلفاز ولكن ليس في الواقع. وبسرعة لاحظت التغيير الذي طرأ عليه. فقد اظهرت الملابس قامته الممتلئة وكففيه العريضين. ومن خلال فتحة السترة بان القسم الأعلى من صدره الكثيف الشعر.

حاولت فانيسا استعادة توازنها بعد هذه الصدمة. ولو كانت قادرة على الهرب فوراً لما ترددت، لكنه امسك بها بقوة ولم يتركها الا عندما هدأت. «هذا انا» كان صوته نقياً، وعيناه مركبتين عليها. «ملابسك في الغرفة الثانية، والافضل ان اعلمك كيف تربطين الحزام حول خصرك. فهي بناء».

ابتعد عن الباب ليفسح لها مجال الدخول. وكمن يساق الى ساحة الاعداء، دخلت فانيسا الغرفة الثانية ببطء وهي مطأطأة الرأس.

٦ - السر الدفين!

«لقد غيّرت رأيي، فلننس الأمر برمته».

اختلجت هذه الكلمات على شفقي فانيسا وهي تواجه كال غرين على فرشاة الجيدو، لكنها لم تستطع ان تنطقها ابدأ. اخبرها ان الفرشة مصنوعة من التاتامي وهي عيدان نبات الأرز بعد حصاده وتحفيفه. المعلومات غير مهمة بالنسبة لها، المهم وجودها اساساً في هذا المكان. نظرت الى نفسها في الرداء الأبيض فأدركت لماذا طلب منها كال ان ترتدي قميصاً داخلياً، ذلك ان الرداء كان فضفاضاً بالرغم من الحزام الذي يشده حول خصرها. وعندما ربط لها الحزام، ابلغها ان السترة كثيراً ما تتمزق خلال التدريب، وطلب منها بابتسامة خفيفة الا تهتم، على الأقل في المراحل الأولى. لاحظت فانيسا ان كال قد تغير بشكل يصعب تحديده. بدا وكأنه انسان اخر تماماً. فهو هادئ وواثق من نفسه بطريقة لم تعهدها فيه. نظر اليها وقال:

«اولاً، وقبل كل شيء، يجب ان نحمي انفسنا، اي ان نعد عضلاتنا للمحركة. فأريدك ان تراقبني وتنفذي ما افعل بحذاقيره. هل انت جاهزة؟».

«انا جاهزة».

مررت فانيسا لسانها لترطب شفقيها الجافتين. عليها ان تركز على التدريب. فمهما كانت الأسباب التي تدفعه الى مساعدتها، لا شك انها مستفيدة من دروس الدفاع عن النفس، ولهذا السبب فقط يجب ان تعترف له بالجميل. بدأت تكتشف ان حركات التحمية سهلة المتابعة، وسرعان ما

شعرت بأن عضلاتها لانت وارتحت خاصة عندما نفذت القفزات الامامية التي كانت تعتقد انها عاجزة عن القيام بها.
«يكفي هذا، لننتقل الى المرحلة الثانية».

توجه اليها وهو يقول:

«قفي منتصبه وارمحي جسدك. اجل هكذا. كلا، رقبتك ما تزال متصلة. ارخيها تماماً».

كانت لمسته قوية دون قسوة ولا تحمل اي معنى شخصي. حركت فانيسا رأسها استجابة لحركات اصابعه، وسمعتة يقول:

«هذا افضل. والآن، قبل ان اعلمك حركات جديدة، يجب ان تتعلمي السقوط الدفاعي بحيث لا تؤذين نفسك اذا ما سقطت».

«انا مستعدة».

استغربت كيف ظلت تحس دفء لمسته بالرغم من انه سحب اصابعه منذ فترة. اخذت نفساً عميقاً لتسكن روعها وتمتت فعلاً لو انها تستطيع ان ترتاح كما يطلب منها. كم ستكون الأمور اسهل اذا ما تناسست شكوكها حول كال، وركزت على...

«هل تسمعيني يا فانيسا؟».

«انا متأسفة».

تضرج خذاها بالدم للملاحظته، نظرت اليه فلم تراه تعابير خاصة على وجهه. جو العداء والتوتر ذهب الى غير رجعة، وكلامه كان هادئاً وورصيناً. لذلك شعرت بالراحة.

«استلقي الآن. سأقوم امامك بالسقطة الدفاعية».

وسرعان ما استلقي على ظهره بحركة واحدة قوية.

«والآن راقبي، أولاً يجب ان تمارسي هذه الحركة، ثم تأتي حركة الانحناء البسيط المؤدية الى السقطة المريحة... واذا ما نفذت الحركة بحذافيرها ستجدين ان بإمكانك السقوط دون اي اذى».

تابعت فانيسا مراقبة هذا الرجل، كان هناك شيء جذاب حوله، وهي تريد ان تتعلم بسرعة كي تثبت له انها تلميذة مجتهدة. وهكذا لاحظت حركاته، راقبته وهو يتدحرج على يمينه ويده ممتدة على طولها، لتقيه صدمة الارتطام بالأرض ثم تأتي قدماء لاكمال الحركة. على وجهه امارات التركيز

الشديد، لكن كلماته كانت هادئة طيلة الوقت وهو يخبرها عن تفاصيل السقطة الجانبية «يوكويوكومي». وعن ان الاسماء اليابانية للعبة معروفة عالمياً بحيث ان الناس الذين لا يعرفون الا لغتهم القومية قادرون على فهم التعابير كاملة.

فجأة انتفض واقفاً. جاء صوته عميقاً وهو يقول:

«هيا، استلقي ارضاً، لقد حان دورك».

اطاعته فانيسا على الفور، واستلقي هو قريباً منها.

«هذه هي الطريقة، الذراع ممدودة على طولها، حسناً، والآن طبقي ما اقوم به».

احست فانيسا بالضيق لفترة قصيرة. فقد كان هناك شيء غريب حول كال غرين وهو يلعب دور المدرب الغريب القادر على اداء مهمته بنجاح. فمع كل حركة وكل كلمة وكل لمسة مساعدة منه كان جسمها يستجيب بسهولة. انها تريد اتقان اللعبة.

وعلى حين غرة طلب منها ان تتوقف:

«هذا يكفي. دعينا ننتقل الى المرحلة التالية، فهل انت مستعدة؟».

«اعتقد ذلك. هل كنت على ما يرام؟».

اجابها بهدوء:

«لا بأس بك».

ولكنها شعرت بانه مسرور من ادائها بدون ان تدري سبب هذا الشعور. جعلها تعيد تنفيذ السقطة الامامية، أولاً من موقع الوقوف، مساعداً اياها على اخفاء رأسها داخل جسمها وتقريب القدم اليسرى على اليمنى ثم من موقع الحركة... وكل ذلك بدون ان تبدو عليه اية مشاعر او تعابير.

«يكفي الآن، سنأخذ قسطاً من الراحة. اجلسي على الفرشة وسأقوم امالك ببعض الحركات. بينما تريحين نفسك قليلاً. فيجب ان لا تجهدي نفسك، وارجو ان تخبريني حين تشعرين بالتعب».

ومع انها راقبت الحركات التي اداها خلال الدقائق القليلة التالية الا ان اهتمامها لم يكن مركزاً فيها. لقد اخبرها قبل ان يبدأ انه لن يعلمها اية سقطات غير السقطة الأولى، على الأقل في هذه المرحلة، لكن لا شيء يمنع

من ان يعرض امامها بعض الألعاب التي سيأتي دورها لاحقاً. وجدت نفسها معجبة بحركاته الرائعة. تعرف تماماً انها لن تستطيع تنفيذ ما يقوم به، وهو بدوره لا يتوقع منها ذلك. ولكن الذي اثار اعجابها هو الرجل نفسه، فلقد كان انساناً مميزاً. لم تكن ملابسه وحدها مختلفة. بل تغيرت كل تصرفاته وتعاييره بطريقة جعلتها تشعر - واستغربت ذلك كثيراً - بالاحترام الشديد له. كان واثقاً مما يقوم به، بالإضافة الى قدرته على افهام فانيسا طبيعة الحركات الصعبة. فاستعادت ثقتها بنفسها بعد ثوان قليلة من نزولها الى الحلبة وبالتالي تمكنت من اتباع كافة التعليمات التي اعطاها. عادت الى الواقع عندما انتهى كال حركاته الاستعراضية. سألها: «هل انت مستعدة؟»

كان شعره مبعثراً وقد تدلت خصلة منه على جبينه. وجاهدت فانيسا كي تمنع رغبة راودتها بأن تذهب اليه وترفع عن عينيه هذه الخصلة المتوردة. كانت الفكرة مضحكة. فماذا سيقول اذا ما نفقذتها فعلاً؟ «اما زلت متعبة؟»

نظرت الى جبينه حيث ظهرت حبيبات من العرق. كان جو الغرفة دافئاً. واحست فانيسا بحاجة الى كأس من الماء البارد، لكنها لم تتجرأ على الطلب. واجابته قائلة:

«اشعر بشيء من التعب، لكن لا شيء يهم؟»
ابتسم كال بهدوء، وقال:

«يجب ان لا تجهدي نفسك. لا فائدة ترجى من التدريب اذا كانت عضلاتك لا تستجيب. فالمسألة تحتاج الى وقت».

«انا متأكدة من ذلك، فأنت مدرب ممتاز».

لم تكن تنوي اطلاق هذا التعبير، لكن الكلام افلت قبل ان تفكر فيه. «شكراً لك، فلقد بدأت التدريب باكراً».

«انت تحمل الحزام الأسود».

ولم تكن تنتظر جواباً لأنه كان موجوداً على خصمه.

«انا احمل الحزام الأسود، اما السيد ماكلين فيحمل الحزام البني... انه بارع في اللعبة بالنسبة الى سنه».

«لهذا السبب انت هنا؟ اقصد كي تدربه؟»

هز رأسه بالنفي. وقال:

«لا ابدأ. انا ضيف هنا فأني كان صديقاً حميماً للسيد ماكلين. ولذلك اخترت المكان لأقوم ببعض الكتابة...»

تردد قبل الكلمة الأخيرة ثم تابع:

«كتابة بعض الأشياء الخاصة، وايضاً جولات تدريبية في الجيدو». اذارت فانيسا رأسها الى ناحية اخرى من الغرفة كي تخفي عن كال تعابير وجهها التي قد تكشف افكارها... لكنها نسيت انه يقرأ الافكار ايضاً. احست باصابعه على ذقنها تعيد وجهها الى مكانه، ونظر الى عينها مباشرة وهو يقول:

«هيا، قولي ما تفكرين فيه!»

«اقول ماذا؟»

«افكارك التي اخفيتها... من انني مجرد شخص كسول يمضي وقته متسكعاً هنا».

«لا تكن سخيلاً».

حاولت ان يخرج صوتها واثقاً وقوياً، اخر شيء تريده الآن الدخول في جدال معه. ليس الآن، فهما في حالة جيدة ومن العيب افساد كل شيء. «لا الوملك اذا فكرت بتلك الطريقة». وفاجأها بقوله هذا. «انا سأفكر بالطريقة نفسها لو كنت مكانك. لكنني فعلاً اشتغل في اعداد كتاب».

«رواية؟»

ندمت لأنها سألت مرة اخرى. فبقدر ما تبتعد عن تفاصيل حياته الخاصة بقدر ما تمنعه من العودة الى طرح الاسئلة المحرجة. وهو الشيء الذي لا تريده مطلقاً. ولكن السؤال كان تأدياً.

«ليس رواية، انه كتاب عن الرحلات. لقد عدت للتو من جولة اوروبية واسعة، واريد ان اكتب انطباعاتي عنها».

واكتفت بوضع علامة تعجب على وجهها وقررت ان تعود الى التدريب بسرعة. فالشيء الوحيد الذي تفكر فيه حالياً هو ابعاده عن التساؤل حول

سبب وجودها في دينستون هاوس. قالت:

«هل يمكن ان نعود الى التدريب؟»

«بالطبع. الان وقد تعلمت السقطة الدفاعية - ويشكل ممتاز بالنسبة

لشخص مبتدئ - فسقوم ببعض الحركات المشتركة. سوف ارميك. لكنه توقف عندما لاحظ خوفها من هذه العبارة ووضح قائلاً: «ليس بالمعنى الكامل، اذ سأوقف الحركة قبل الوصول الى الأرض. انها استمرار لما كنت اقوم به منفرداً».

امسك كل واحد منها كم الآخر وهما يواجهان بعضهما البعض.

«احكمي قبضتك على كمي مهما حدث، وثقي بي».

وفجأة، احست بقبضته تشد في حين بدأ جسمه يتحرك. وأنه ينحني على اطراف اصابعه، ولم تشعر الا وهي فاقدة التوازن. ثم دخل كتف كال تحت ذراعها وازداد جسمه انحناء. وبحركة واحدة منه وجدت نفسها مرمية من فوق كتفه.

وفي لحظة رعب ادركت انها فقدت اتصالها بالأرض، لكن دفعة لطيفة منه اكملت الحركة والفتها الى الفرشة. ودون ان تدري نفذت السقطة الامامية، واصطدمت بالأرض دون اية صعوبات. وعندما نهضت، رأت كال يتشم بعمق. كان شعورها مزيجاً من الاعجاب والارتياح والضيق. فقد احست، رغم انه تصرف معها بلامبالاة، بشيء خاص في لمساته. .. آه كم كان قوياً في حركته.

«مرة اخرى؟ لم تكن الحركة سيئة على الاطلاق!».

اخذت نفساً عميقاً وقالت:

«لم تكن سيئة. فقد شعرت انني سأطير».

«قلت لك ان تثقي بي». وازدادت بلهجة هادئة «لا اظنك تعتقدين بانني سأتركك تقعين بالفعل!».

«لست ادري ما يمكن ان اعتقد بشأنك».

مرة اخرى ندمت لأن لسانها سبق عقلها. لقد فات الآوان، اذ تغيرت تعابير وجهه قليلاً، ثم ابتسم:

«اعرف ذلك فالشعور متبادل. انا ايضاً لا ادري ما اعتقد بشأنك».

ارادت ان تبتعد عنه على الفور. وضعت يدها على جبينها وقالت:

«كم مضى على وجودنا هنا؟».

«حوالي الساعة. لماذا؟ هل اكتفيت؟».

كان يراقبها بتمعن، وقد بدأ جو التوتر يهيمن مجدداً على الغرفة. خافت

فانيسا من الوضع وارادت ان تهرب منه بسرعة:

«ان قدمي متعبتان قليلاً».

اعترفت بدون الحاجة الى الكذب، فالتعب قد حل بها فعلاً.

«اذن مستوقف». لقد طلبت منك ان تبلغيني متى تعبت، على كل ستتابع

الدروس غداً. عندها ستكون الامور افضل. وتستطيعين تعلم الحركات

اسرع بعد تمارين اليوم».

فكرت فانيسا بطريقة تخرجها من هذه الورطة. ثم ادركت ان هناك

متسعاً من الوقت لتفكر في اعذار اذا وجدت ذلك ضرورياً. وكان كال

متعباً الى حد ما فلم يلحظ تردها في الاجابة.

«اجل، الموعد غداً سيكون ممتازاً».

«بعد الظهر، حوالى الثالثة؟».

«موافقة. يجب ان اذهب الآن. سأبدل ملابسني في غرفتي. وسأعيد

لك البزة فيها بعد».

اجابها:

«احتفظي بها للغد، فستحتاجين اليها كثيراً».

«شكراً على الدرس».

نظمت هذه العبارة وهي تدخل الى غرفة تغيير الملابس لتأخذ صندلها.

وانتظرت حتى اختفى في الغرفة الثانية، ثم اطلقت ساقها هرباً الى

غرفتها.

لم يخبرها احد ان هير ووالدتها ستكونان على العشاء تلك الليلة،

ولذلك احست بانها خدعت عندما دخلت غرفة الطعام ووجدتها مع كال

وجدها وهم يتحدثون ويضحكون. كان كال مشغولاً في حديث هامس مع

هير، بينما جدها يضحك لعبارات اطلقتها السيدة ماكري. ترددت فانيسا

في الدخول كي لا تحطم ما اعتبرته جواً مكتملاً، وفكرت في العودة من

حيث اتت. لكنها تأخرت، لان كال سمعها، فاستدار قائلاً «ها هي

فانيسا» استدار جدها ايضاً وقال:

«تعال يا فانيسا، تعالي. لقد تعرفت اليها يا آن على ما اعتقد؟».

ابتسمت السيدة ماكري ملء فمها وقالت:

«كيف حالك يا عزيزتي؟».

«عل احسن ما يرام . شكراً لك يا سيدة ماكري» .

ردت فانيسا التحية بأحسن منها . فهذه الامراة الطيف كثيراً من ابتها . وتأسفت لأن ذوق السيدة ماكري في الملابس ضعيف جداً . كان ثوبها الطويل غير مناسب لها ، لونه الاصفر الفاقع انعكس على وجهها فزاده ضعفاً وشحوباً . اما جدتها فقد كان شديد الاهتمام بهذه الامراة ، وشاهدت فانيسا في عينيها نظرة دفة وهو يرنو اليها ، وفكرت فانيسا في سرها : «لا شك انه يحبها» واحست بشعور غريب لهذه الفكرة . هل كال على علاقة حب مع الابنة ايضاً؟ وهل هذا هو السبب الذي جعلها تبقى؟ وسرعان ما وجدت نظراتها تلاحق الاثنين اللذين وقفا بالقرب من النافذة . من الصعب ان تفهم علاقتهما ، فرجل مثل كال يستطيع ان يخفي كل مشاعره اذا اراد ، ولكنه الآن لا يظهر الا الاهتمام الشديد بهذه الفتاة الجميلة . رآته يشعل لها سيكارتها ، ولاحظت ان يدها لامست يده لثوان وهو يقرب الولاة من السيكاة . استدارت فانيسا بسرعة وسمعت جدتها يقول «والآن يا فانيسا ، حدثينا عن درسك الاول اليوم؟» .

احدث السؤال جواً من الصمت في الغرفة . وبدا لفانيسا ان هيثر اصغت بكل جوارحها . والآن كيف تستطيع الاجابة على السؤال بدون ان تزيد في عداة الشقراء الجميلة لها؟ كم تمنى لو انها لم تأت ابداً «كل شيء كان على ما يرام . شعرت بعد انتهاء الدرس ببعض التصلب ، لكنه زال بسرعة» .

واضافت تقول لنفسها : «ارجوكم ، دعونا نغير الموضوع برمتة» .

تساءلت آن ماكري بصوتها الواضح العالي :

«اي درس تقصد يا اندرو؟» .

ضحك اندرو ماكلين وهو يقول :

«يعتقد كال ان فانيسا تحتاج الى بعض الدروس في الدفاع عن النفس ، لذلك اخذها الى غرفة الرياضة هذا الصباح وعلمها بعض الحركات» . التفتت السيدة ماكري ببطء الى فانيسا التي احست بقلبيها يغرق بين اضلعها .

«حقاً؟» .

انه شيء ممتع . وتابع الصوت البارد يقول :

«اخبريني ، هل وجدت الامر صعباً ، اقصد اليست الدروس قاسية عليك؟» .

وبدت علامات الاشمتزاز على وجهها عندما طرحت السؤال الأخير . «لقد تعلمت اولاً السقطة الدفاعية ، هذه كانت سهلة الى حد ما» . عندها لاحظت فانيسا تعابير هيثر ، حيث الغضب المكتوم يزأر في العينين الجميلتين . ليس لديها شيء تخسره ، فهي لم تباشر الحديث ولذلك فليتحمل الآخرون مسؤوليةاتهم ، فتابعت تقول :

«ثم علمني كال شيئاً مختلفاً تماماً وهو عبارة عن رمي الى الارض بدون الاصطدام بها . كانت الحركة ممتازة» . ولم تعرف لماذا التفتت الى كال وابتسمت له ، كما لم تعرف ما الذي يدفعها الى هذا الموقف . غداً ستفكر في الامر ، اما الآن فهي لا تهتم ابداً .

«كانت حركة سهلة للغاية . وعما قريب ستستطيعين اتقان الاصعب» . «انك مدرب رائع» . كان الجميع يراقبونها : جدتها باهتمام ملحوظ ، والسيدة ماكري بامتعاض بالغ ، وهيثر بعداء سافر . . . اما كال ، فقد بدا وكأنه يتمتع بالموقف كله .

«... وقوي جداً ايضاً» . ابتسمت بعمق وهي تنظر الى هيثر . فكرت في نفسها : «فلتعتقد ما تشاء حول الدروس واذا ما صدقت توقعاتي فان كال سيواجه المتاعب فيما بعد» . انها غير مهتمة ابداً . تابعت وهي تنظر الى جدتها ولكن الحديث موجه الى هيثر الجميلة :

«فما ان رفعتني حتى رماني ثم انزلني بلطف الى الارض ، وكل ذلك دون ان يتركني . كان الاحساس عميقاً وخيفاً الى حد ما ، ولكنني لم ارتعب» . هز اندرو ماكلين رأسه انفعالا وقال :

«كم اتحى لو انني كنت هناك!» . ثم تكلمت هيثر بهدوء ، لكن فانيسا شعرت بالغضب الكامن في «اخبرها» :

«لم تخبرني يا كال بانك خبير في لعبة الجيدو» .

«لم اعتقد انك مهتمة بهذه الناحية يا عزيزتي».

كم هو مختلف الآن عن مدرب الجيدو البارد الاعصاب الذي كانه قبل ساعات.

دخلت السيدة بانكس بالطعام المكوّن من السمك المشوي والعجة والبطاطا، فتوجه الجميع الى مقاعدهم. . . وبدأت ردود الفعل. لماذا كان عليها ان تثير غضب هيثر الى هذا الحد؟ خاصة ان الامسية ما تزال في اولها. قررت ان تذهب الى غرفتها فور انتهاء العشاء. وعندما ابلغت جدها عن رغبتها في الاستئذان والانصراف وافق على ذلك عن طيب خاطر. وادركت انه لا يريد اية مشاكل باعتبار ان هيثر ووالدتها صديقتان مقربتان، وخاصة الام.

امتلاّت نفس فانيسا ببعض مشاعر الحزن وهي تصعد السلالم، ولما وصلت الى غرفتها احست بالوحدة تحتاحها بعمق. . . وظلت تسيطر عليها صورة المجموعة التي ما زالت تمضي الليل في الصالون ضاحكة ومستأنسة. لقد كانت الغريبة غير المرغوبة بينهم.

لم تستطع ان تقرأ اياً من الكتب التي استعارتها. ولا ان تشاهد برامج التلفاز المتنوعة. وبعد نصف ساعة من التنقل بين مسلسل تلفازي قديم، وكتاب بوليسي ممل، رمت الكتاب على السرير بنزق واقفلت الشاشة الصغيرة. ثم تذكرت فجأة الصحف القديمة في المكتبة. يمكن ان تقضي مع هذه الصحف ساعة او اكثر، تذهب بعدها الى النوم بسهولة.

فتحت فانيسا باب غرفتها وتمهلت قليلاً للاستماع الى الاصوات المنبعثة من تحت الاضواء الخفيفة تنير السلام والقاعة الكبرى في حين تتردد في الصالون اصدااء اصوات وضحكات خافتة. لن يسمعها احد الآن اذا ما نزلت الى المكتبة. . . وحتى لو سمعوها، فهذا غير مهم.

اضاءت احدى الثريات في المكتبة وتوجهت بهدوء الى المكان الذي وضعت فيه الصحف. وتساءلت اذا كان الافضل لها ان تحمل الصندوق كله الى غرفتها او تكتفي ببعض الاعداد. ففي هذه المجموعة اشياء كثيرة للقراءة، ولذلك فان بعضها يكفي. ولكن من ناحية اخرى يجب العمل على ترتيبها زمنياً وهذا يعني اخذها كلها. لذلك قررت حمل المجموعة كاملة للعمل على ترتيبها اولاً ومن ثم قراءها، فهذا يوفر عليها الوقت فيما

بعد. لم يكن الصندوق ثقيلاً جداً، ولكنها عندما انحنت لحمله اوقعت احد الكتب على الارض محدثة صوتاً عالياً.

اضطربت قليلاً، ثم وضعت الصندوق ارضاً كي تلتقط الكتاب وتعيده الى مكانه. وفجأة طغى ضوء ساطع على الغرفة فالتفت لتجد كال واقفاً في الباب. وشعرت كانها اعتقلت بالجرم المشهود.

سار باتجاهها وهو يتنسم.
«حسناً، حسناً. . . ماذا تفعلين؟»
استعادت فانيسا رباطة جأشها بعد لحظات الاضطراب الاولى وقالت:
«قررت ان احمل الصحف القديمة الى غرفتي للاطلاع عليها. . . هذا كل شيء».

كانت قد تحبّت النظر اليه مباشرة وهما في غرفة الطعام، لكنها فعلت الآن. والواقع ان لا خيار لها سوى النظر الى هذا الرجل الجذاب في بدلته السوداء الفاتحة وقميصه الابيض وربطة عنقه السوداء ايضاً. والذي يتناقض تماماً عما كان عليه في الصباح. بدا وجهه غامضاً ومظلماً لأن الضوء الاساسي كان ينبعث من خلفه. استدارت فانيسا بقلق وانحنت تلتقط الكتاب لتعيده الى الرف.

قال:
«سأحمل لك الصندوق الى غرفتك».
«لا حاجة الى ذلك، فأصدقائك سيتساءلون عنك بعد قليل».
لم تقصد ان تثيره بهذا الكلام، لكنها فعلت اذ لاحظت على وجهه انبسام غاضبة وهو يتجاوزها نحو الصندوق.

اجابها بجفاء واضح:
«الجو بارد جداً هناك، والفضل في ذلك يعود- بدون شك- الى التفاصيل التي رويتها عن دروس الجيدو».
امتزجت في نفس فانيسا احساسين هي خليط من الشعور بالذنب لأنها ورطت كال، وايضاً الشعور بالظلم لأنها لم تكن البادئة في الحديث حول الموضوع. استعادت هدوءها وقالت:
«ومهما كان الأمر، فلم اكن انا التي اثرت الموضوع في الأساس. وعليك ان تذكر هذا الواقع».

تخرج خذاها بالدم وراح صدرها ينتفض بفعل الغضب، وما لم تنتبه له
انذاك انها كانت تبدو جميلة ومثيرة للغاية. والشيء الوحيد الذي خطر على
بالها وجه هيثر المنفعل عند سماعها القصة...
«اهدأي الان ايتها القطة المتوحشة».

بدا كال مستمتعا بغضب فانيسا وهو يحمل صندوق الصحف القديمة.
اما فانيسا فلم تكن راغبة في مواصلة الحديث، لذلك استدارت خارجة من
المكتبة، وتركت مع الصندوق... فاذا اراد حمله فليكن، والا فالى الجحيم
هو والصحف.

هرعت راكضة طول الطريق الى غرفتها، وعندما وصلتها تمهلست تستمع
لوقع خطواته. الاكيد انه لن يأتي! سيضع الصندوق ارضاً ويهر كفيه
العريضتين ويقول:

«الى الجحيم أنت ايضاً»... ثم يعود الى صديقته التي تنتظره.
«اياك ان تهربي مني مرة ثانية».

دخل الغرفة وراءها واغلق الباب بقدمه. وجه اليها النظرة الباردة
نفسها ثم وضع الصندوق على الكرسي وقال:

«هل تهربين من الناس دائماً عندما يحى وطيس النقاش».
اتسعت عينا فانيسا دهشة وهي تقول:
«انا اهرب؟ لا شك انك تمزح. اي نقاش تحدث عنه؟ لقد قلت لك
ببساطة».

«رواية متوازنة بسيطة حول التمارين الصباحية، اجل، سمعت ذلك
وشاهدت وجهك، كنت تستمتعين برودة الفعل، اليس كذلك؟».

سارت فانيسا نحو الباب لتفتحه وبدأت تقول:
«هل تسمح؟».

لكنه اوقفها واعادها الى مكانها بسرعة.
«كلا. لن اغادر الغرفة، ليس قبل ان اكون مستعداً».

امسك ذراعها، ومع ان قبضته لم تكن قوية الا انها كانت حازمة بما فيه
الكفاية.

«هل تستعمل اسلوب القوة الجسدية دائماً مع النساء اللواتي لا يوافقنك
اراءك؟ لا بد انك ربحت العديد من المناقشات بهذا الأسلوب».

ثم سحبت يدها بقوة وقالت:
«دعني لوحدي فوراً».

«لن اتركك. على كل، النساء لسن مثلك كلهن، فانت تملكين طباعاً
حاددة جداً، تذكرني بشخص...».

تجمدت في مكانها. اتضح الآن السبب الذي جاء من اجله، وسيطلق
بالكلمة في اية لحظة...

عليها ان تفعل اي شيء لتغيير الموضوع. اي شيء لابعاده عن
الموضوع السري الذي تكتمه، فجأة صرخت الماء، ولاحت الدموع في
عينها، هذه الدموع التي تستطيع سكبها ساعة تشاء:

«انك تؤلمني... اترك معصمي»...
اطلق سراحها فوراً، ثم رفع ذقنها الى الاعلى ونظر في عينها بحدة:

«يا الهي... وتعرفين فن التمثيل ايضاً».
«لست ادري... لست ادري ما تقصد».

بدأت تعتاد دورها بسهولة، ما دام قد ابتعد عن الموضوع الاساسي.
اجاب ضاحكاً:

«انت تعرفين تماماً. يا لك من امرأة. ثم ضربها بلطف على ذقنها
واضاف «وداعاً يا سارة برنار، كما تعرفين انا لا احتمل منظر الدموع،
لذلك ساعود الى تحت حيث الجو اكثر برودة من هنا. ولا شك انني
استطيع التعبير عن نفسي بسهولة هناك بدل المشاكل هنا».

وابتسم لها بعمق قبل ان يستدير خارجاً.

وقفت فانيسا في مكانها تراقب الباب المغلق قبل ان تتحرك باتجاه
صندوق الصحف. ترددت قليلاً، ثم حملته الى طاولة صغيرة تحت النافذة
وبدأت بفرز الصحف.

اخرجت حوالى مئتي صحيفة من الصندوق، بعضها كان في حالة رثة
وقد اصفرت اوراقه تماماً، والبعض الآخر ما زال في حالة جيدة. المجموعة
لحاج الى عمل متواصل وطويل، ولكن فانيسا تدرك بانها ستجد فيها اشياء
اكثر اهمية مما في الكتب. رفعت حزمة من اعداد جريدة التايمز تعود الى
العام ١٨٥٤ ووضعتها على الطاولة. كانت الاوراق صفراء مهلهلة وقد
علاها الغبار، وتساءلت فانيسا عن المدة التي ظلت فيها هذه الصحف

مهمة منسية في الصندوق. وفجأة اكتشفت شيئاً مهماً.
الورقتان اللتان وجدتهما كانتا في قعر الصندوق تقريباً. رفعتها فانيسا
باديء الامر بدون ان تعرف مضمونها وكانت على وشك ان تضعهما جانباً
عندما لاحظت الاسم المكتوب على اعلى كل ورقة. فتوقفت.
تردد اسم اندرو ماكلين ما لا يقل عن ثلاثين مرة بالنمط نفسه، وكان
شخصاً ما كان يحاول التمرن على تقليد توقيع جدّها. قربت فانيسا الورقة
من الضوء للتمعن في التوقيعات فانكشفت الورقة الثانية بما تضمنه من كتابة.
كانت عبارة عما يشبه رسالة باستثناء كون الكتابة تبدأ من منتصف الورقة.
لم تكن فانيسا راغبة في قراءة رسائل الآخرين لكن شيئاً ما دفعها لذلك،
فوجدت نفسها تمضي قدماً في القراءة.

الرسالة المكتوبة على الورق كانت على الشكل التالي:
وانا الموقع ادناه، اخول حامل الرسالة جون ماكلين قبض الشيك
المرفق، وايضاً سحب محتويات صندوق الودائع الخاص بي والذي يحمل
الرقم ...

لم تعد قادرة على القراءة اكثر. فقد ادركت فوراً السبب الذي من اجله
تكرر توقيع جدّها على الورقة الثانية. قربت الورقتين الى بعضهما. لاحظت
ان الرسالة ممهورة بتوقيع هو نسخة مطابقة للتوقيعات الموجودة على الورقة
الاولى. لا مجال للشك الآن هناك شخص ما تمرن على تقليد توقيع اندرو
ماكلين حتى اتقنه، ثم كتب رسالة التوكيل والشيك طبعاً... وليسبب غير
معروف وجدت الورقتان طريقهما الى الصندوق... ولكن من هو الفاعل؟
ليس هناك سوى جواب واحد، ففانيسا لا تعرف الا شخصاً واحداً يدعى
جون ماكلين... انه ابوها...

خرجت فانيسا الى نزهة صباحية فور الانتهاء من الاستحمام وارتداء
ملابسها. موعد الفطور بعد الساعة التاسعة كما كان يوم الاحد الماضي،
لكنها لم تكن تشعر بشهية للأكل. فالاكتشاف الذي وقعت عليه مساء امس
اثقل عليها نفسها وجسدها ولم يترك مجالاً للطعام او الشراب. لا تريد ان
تأكل شيئاً. وتشعر الآن وكأنها لن تأكل مرة اخرى في حياتها. تسلمت من
الباب الامامي بعد ان ارتدت معطفاً ثقيلًا، ذلك ان الهواء كان بارداً
ومشبعاً بالرطوبة، والقياب يحثم على البساتين والغابات. استدارت يساراً

وسارت في الممر الطويل مطاطة الرأس واضعة يديها عميقاً في جيبي
معطفها، بدون ان تنتبه الى الرجل الذي كان يراقبها من احدى نوافذ
البيت.

ولانها لم تنم امس الا نوماً متقطعاً قلقاً، فقد اظهرت الظلال الداكنة
التي تركها السهر تحت عينيها بياض وجهها اكثر من المعتاد. تفرغ الممر
الذي تسير عليه الى اتجاهين. اخذت الاتجاه الذي يمر خلف المنزل ثم تمتد
مسافة ميل تقريباً. وسارت دون ان تعي ما يدور حولها، ودون ان تعرف
الى اين.

لم تعد فانيسا ترى سوى ورقة تحمل توقيعات مزورة - الارجح من قبل
ابوها - وهذا ما يجعله مجرماً، ان لم يكن في الواقع فعل الاقل بالنية. هل
مضى والدها قدماً في عمليته؟ وهل نجح في التزوير ام اكتشفوه؟ لن تمرؤ
على سؤال احد، ابداً. وادركت الآن ان مجيئها الى دينستون هاوس، مع
كل الاسباب الموجبة لذلك، قد انهارت وتفتت. من يستطيع القول الآن ان
والدها كان على حق في كل ما اخبرها به من ان جدّها كان قاسياً ومجحفاً
بحق ابنه الوحيد؟ ربما كانت له اسبابه المعقولة؟ لقد صدقت فانيسا كل
الفصص التي حدثها بها والدها عن معاملة اندرو ماكلين السيئة، عن بخله
في المال، عن رفضه السماح له باختيار شريكة حياته، وعن اشياء اخرى
كثيرة... بحيث اضطر اخيراً الى ترك المنزل وتأسيس حياة خاصة به. لكنه
لم يشر ابداً الى التوقيعات المزورة، وربما ترك اشياء كثيرة اخرى دون ان ييوح
بها... وتذكرت فانيسا ادمان والدها على المقامرة وكيف كان يطلب منها
اختيار اسماء احصنة السباق. كان الامر طريفاً وهي طفلة، طفلة تحب
والدها حتى الجنون... لكن هذه الطفلة لم تكن قادرة على فهم دموع امها.
او نقاش والدها حول المال. وفجأة طغت على ذهنها صورة واضحة تماماً،
مثل صورة نصف مكتملة جاءت الاجزاء الناقصة لترسم معالمها الجلية.
لأبعت السير وكأنها تحاول الهرب من سيل الذكريات المزعجة... ثم جاء
صوت مفاجئ:

«صباح الخير. اليس الوقت مبكراً على النزهات الصباحية؟»
رفعت رأسها لتجد لوري واقفاً امامها، والى يمينها بعض الابنية الريفية
الرمادية.

«صباح النور. كنت بحاجة الى نزهة صباحية».

سألها لوري باهتمام:

«هل انت على ما يرام؟».

عاد القلق الى نفسها خوفاً من ان يكتشف فيها شيئاً غريباً.

«كل شيء طبيعي، فماذا تقصد بسؤالك؟».

«وجهك شاحب اللون، ويؤسفني ان اقول انك كمن خرج لتوه من صدمة عنيفة. فاذا كنت تشعرين بالانزعاج، فانا على استعداد للبقاء معك قليلاً».

جاهدت فانيسا كي تنبسم له:

«شكراً يا لوري، لا ضرورة لذلك فسوف اعود الى البيت بعد قليل، على فكرة، ماذا يوجد في نهاية هذا الممر؟».

«لا شيء مجرد بحيرة صغيرة، وبعض الاشجار وبيت ريفي مهجور، فالمر يستمر لمدة ميل تقريباً ثم يعود الى البيت الرئيسي من الجهة الاخرى. هل تريدان ان آخذك اليه؟».

«ولا، شكراً لك».

احست بدوخة خفيفة عندما هزت رأسها بالنفي. مد لوري ذراعه لها وقال:

«تعالي معي، فليس في البيت غير امني وهي ستعد لك فنجاناً من الشاي».

اغراء الشاي كان كبيراً، لكنها لم تكن راغبة في الوقت الحالي بمقابلة اي انسان. تريد فقط ان تكون لوحدها وتفكر بكل شيء... وهي غير مستعدة لمحادثة احد.

«شكراً يا لوري، سأعود الآن الى البيت، فارجوك ان لا ترافقني... صدقتي انا بحالة جيدة».

«حسناً، انا ذاهب بالاتجاه نفسه في اي حال، فهي بنا».

لا مجال الآن للهرب منه، والافضل ان تلجأ الى غرفتها باسرع ما يمكن.

ابتسمت بعمق هذه المرة وقالت:

«حسناً يا لوري. لكنني اؤكد لك بانني لن اسقط خلال المشوار».

رد بابشامة اكبر:

«هذا يدعو للأسف، فساكون مسروراً اذا حملتك طول الطريق الى البيت».

سارا لعدة لحظات وسط صمت مطبق، في حين كان الضباب يذوب تدريجياً بفعل اشعة الشمس التي بدأت تطل من الشرق واعدة بيوم دافئ.

قال لها وهما يقتربان من البيت:

«سأتي الى المكتبة غداً صباحاً».

«حسناً جداً».

لن تأتي على ذكر الصحف القديمة الا اذا سألها في حالة ملاحظته اختفاء الصندوق. لقد اخفت الورقتين في قعر احد ادراج طاولة الزينة، عليها تجد تفسيراً بريئاً... وسيكون الامر مستحيلاً اذا ما اتلفتتها. ومع انها تعرف تماماً ان لا امل يرتجى الا انها اصررت على التمسك بالسراب.

«فانيسا؟».

«نعم».

«قلت، هل انت على ما يرام».

«طبعاً... طبعاً... انا اسفة. شكراً لك يا لوري، اراك غداً».

كانا قد وصلا الى مدخل البيت، فاستدار لوري مبتعداً. قالت فانيسا باستغراب:

«الآن تدخل الى البيت؟».

«لا. كنت اريد الاطمئنان عليك فقط. فهي اذهبي وتناول افطاراً شهيماً، وستشعرين علي الفور بالتحسن».

لمست ذراعه اعراباً عن الشكر وقالت:

«انا ممتنة لك يا لوري. فشكراً جزيلاً على كل شيء».

استدارت ودخلت البيت بسرعة. وما ان وطأت قدمها عتبة البيت حتى اجتاحتها شعور بالحزن العميق. تمهلت للحظة كي تسيطر على احساسها وتحاول تناسي كل ما حدث. ولكنها لم تستطع. فهذا بيت ابيها وبيت جدتها، ولا فائدة من تناسي الماضي واحداً. ابتلعت بعض الدموع التي العذرت على خديها واسرعت باتجاه غرفتها.

استلقت على سريرها وتركت الدموعها العنان، فاحست بها ساخنة حارة ومؤلمة... ثم دفنت وجهها في المخدة وانفجرت منتهبة.
ولم تسمع قرع الباب، كما لم تسمع الصوت الذي ناداها. وظلت على حالها حتى فتح الباب ودخل اندرو ماكلين الغرفة. نهضت وقد انعقد لسانها وملكتها الدهشة، ولم تدرك للوهلة الاولى، بسبب الدموع التي منعتها من الرؤية الواضحة، ما اذا كان هذا جددا او كال.
ثم جاء صوت جددا:

«ماذا بك يا ابنتي العزيزة؟»

لم تحر فانيسا جواباً عندما اقترب منها. ضاعت كل الكلمات من ذهنها. فاكتفت بهز رأسها بلا وعي.
وضع ذراعه على كتفها وقال:

«ما الامر؟ هل فعلنا شيئاً اساء اليك؟ بحق السماء يا فانيسا اوقفي هذا النحيب، فانا لا نستطيع ان اراك باكية! ارجوك اهدأي».
وتدريجياً أثر رجاءه فيها. فاستطاعت من بين شهقات البكاء ان تجيب:
«انا آسفة! لا، لم يصدر عنكم ما اساء اليّ. لا أستطيع ان اخبرك السبب. المسألة خاصة جددا».

جلس على المقعد قبالتها وقال:

«في هذه الحالة لن اكرر السؤال. لكن ارجوك، دعيني اساعدك اذا امكن. لم تتناولي افطارك بعد، اليس كذلك».
«كلا».

«اذن ستحضر لك السيدة بانكس بعض الطعام. واصبر بعد ذلك على ان تنزلي الى الصالة فتحدث قليلا حول فنجان القهوة».

نظرت اليه فانيسا وقالت:

«ولكنك يجب ان تذهب الى اشغالك هذا الصباح!».

ابتسم وقال:

«يمكنني تأجيل اعمالي هذا الاسبوع. فلن اغادر البيت واتركك على هذه الحالة دون ان اعرف السبب. كما انني اتردد في سؤال كمال لأنه مشغول في الكتابة... والى جانب ذلك».
وتوقف عن الكلام فجأة.

فحسته قائلة:

«ماذا؟».

ابتسم متابعاً:

«لدي انطباع بانكما اشعلتما النيران في انفسكما».

فاطمته بتهدئة احتجاج وانكار، فضحك قائلاً:

«لا تغضبي يا عزيزتي، انا افهم الوضع تماماً. كان من الطبيعي ان اسطدما ببعضكما البعض. فكال رجل عدائي جدداً، اما انت فانتطاعي هناك انك امرأة ذات ارادة قوية، انا احب مثل هذه المرأة. واعتقد ان دورس الجيدو ستعطي مفعولاً قوياً عندما تقطعين مرحلة منها».
وعلى الرغم من كل شيء، ابتسمت فانيسا لكلام جددا:

«انا آسفة، لم ادرك...».

فاطمها واقفاً:

«لا تهتمي ابداً. انا اتمتع بوجود الشباب حولي. والان، اقترح عليك ان تغسلي وجهك بينما اطلب من السيدة بانكس اعداد فطورك... وبعد الطعام اراك في الصالون».

غادر الغرفة واغلق الباب خلفه بهدوء.

ملأت فانيسا الحوض بالماء البارد وغمست وجهها فيه مع ابقاء عينيها مغلقتين. انها خدعة تعلمتها منذ سنوات لترطيب العينين وازالة الاحمرار ماها. وبينما هي تشف وجهها سمعت السيدة بانكس على الباب، فدعتها الى الدخول.

الافطار الذي جاءت به السيدة بانكس يتكوّن من بعض الخبز المحمص الى جانب البيض المقلي مع الفطر ثم الزبدة والعسل... وطبعاً فنجان قهوة.

قالت فانيسا:

«شكراً جزيلاً لك يا سيدة بانكس».

ردت مديرة المنزل وهي تسعل:

«لقد طلبتني ذلك، قال انك لست على ما يرام».

«لم اكن مرتاحة. لكنني سأشعر بالتحسن عندما اتناول هذا الافطار الشهى».

هزت السيدة بانكس رأسها وكأنها غير مقتنعة بما قالته فانيسا.
«حسناً سأتركك الى طعامك الآن».

وذهبت. تنهدت فانيسا وتساءلت عما اذا كانت ستخترق تحفظ هذه المرأة في يوم من الايام. لكنها لن تستطيع، لأنها غير باقية هنا طويلاً خاصة بعد اكتشافها الليلة الماضية. فكل خطط الانتقام التي رسمتها ضد جدها تلاشت، حطمتها حقيقة الورقتين القديمتين، واخذت تفكر بالوقت المناسب لمغادرة البيت. صحيح ان هناك عملاً كثيراً في المكتبة لكنها لا تستطيع تحمل البقاء هنا طيلة هذا الوقت محتفظة لنفسها بالسرا الذي انتصح لها. كما انها لا تستطيع مصارحة جدها بالحقيقة، كيف تجرؤ على ابدائه؟ لقد استطاع تجاوز آلام السنوات الماضية، فهل يجب عليها ان تفتح له الجراح الملتئمة؟ من الافضل ان تنسحب بهدوء... ولا تعود ابداً.
بعد فترة من الزمن سيخف شوقه لحفيدته المجهولة. فكّرت ان تجربه عن حقيقتها، لكنها اسقطت الفكرة فوراً، اذ كيف يمكن ان تعترف بالخدعة التي خططت لها؟ وبأنها قررت ان تجربه حقيقة شخصيتها قبل ان تخرج من حياته مرة اخرى والى الابد؟ اما بعد ان تعرفت اليه فلن تتمكن من اخباره. ليس الآن، فقد فات الاوان... فات الاوان نهائياً.
لوري يستطيع ان ينجز العمل في المكتبة. ولم لا؟ فهو يعمل بنشاط وقادر على متابعة المهمة. بالاضافة الى ذلك يحب الكتب، خاصة الكتب القديمة، مثله مثل صاحب البيت.

جلست الى الطاولة بعد ان رفعت عنها الكتب والجرائد، وبدأت تقلب في ذهنها طرق اقناع لوري بمواصلة العمل بعد ان ترحل. انه آت الى المكتبة يوم الاثنين، ورغبته في العمل معها يومياً واضحة كما انها مقبولة من جميع المعنيين. وهذا سيكون ترتيباً معقولاً ولا يسبب اية ازمات. والمهم في النهاية ان يتم ترتيب وفهرسة الكتب.
وبدأت فانيسا تشعر ببعض التحسن وهي تتناول طعامها. هذا التحسن الخفيف يكفي الآن على الأقل.

لكن مشاعرها عادت اليها في وقت لاحق من النهار عندما نزلت الى غرفة الرياضة. شاركها اندرو ماكلين الغداء في حين كان كال خارج البيت. وقد حاول جدها كما فعل طول النهار ان يسليها ويرفها عنها. ابلغها

عن بعض ارتباطاته واشغاله... ورغم كل شيء بدأت تحس باعجاب متزايد تجاهه. وجدت انه شغوف بعمله، وله مصالح متعددة منتشرة من ابردين الى لندن، تدفعه الى التنقل كثيراً بين بريطانيا واوروبا. وبعيداً عن شؤون العمل اكتشفت حساسية مرهقة في طباعه. ومع ان والدها وصف لها جدها بأنه قاسي القلب، الا ان الحقيقة كانت مختلفة.

ذهبت فانيسا الى غرفة الرياضة واحاسيس متضاربة تختلج في نفسها، ولحنت لو تجد كال غرين قبل ان يرتدي بزة الجيدو لتطلب منه ان لا يزعج نفسه بذلك. والواقع انها لا تريد ان تمضي وقتاً طويلاً معه، فعيناه الحادتان قادرتان على اختراق افكارها والوقوف على مشاعرها... وهذا ما لا ترغب به الآن.

الصمت يخيم على غرفة الرياضة، عبرت فانيسا باتجاه غرف تغيير الملابس وهي تتنادي: «كال!» وادركت بعد فوات الاوان انها نادته باسمه الأول، فعضت شفتها السفلى ندماً. ومع ذلك ليس هناك مجال آخر، فعناداته باسم سيد غرين ستثير سخريته دون شك.
«سأكون معك خلال دقيقة».

اذن هو في الداخل. بعد لحظة خرج اليها وعلى وجهه علامة استفهام.
فانيسا تعرف ان احداث الصباح تركت آثارها على وجهها بحيث لا يمكن للماكياج ان يخفيها.

قالت وهي تجهد دون جدوى لاختفاء مشاعرها:
«كنت اتساءل اذا كنت هنا، فالمكان كان صامتاً تماماً».
نظر اليها باندهاش، فخشيت ان يكون جدها قد اخبره عن دموعها ونحيبها هذا الصباح، لم تكن متأكدة من ذلك، لكنها تمنّت ان لا يكون جدها قد فعل.

اجابها بهدوء:
«انا هنا، فهل انت مستعدة؟».
ترددت لحظة قبل ان تقول:
«اجل، لن أتاخر في تغيير الملابس كثيراً».
تجاوزته ودخلت الى الغرفة. ماذا بعد؟ لم يكن لديها خيار. عليها ان تستمر بالرغم من شعورها بالضعف والاعياء.

بعد دقائق كانا في مواجهة بعضهما البعض فوق فرشاة الجيدو. وسرعان ما ارتاحت فانيسا بفعل حركات التحمية التي ادياها معاً، بالإضافة الى انه لم يثر اية تساؤلات.

طلب منها ان تكرر السقطة الدفاعية التي تعلمتها امس عدة مرات. واستغربت كيف انها استطاعت تنفيذها دون صعوبة تذكر، بحيث ان كال نفسه على ذلك فيما بعد قائلاً:

«هل تعرفين ان حركتك طبيعية؟»
التفتت اليه بسرعة متوقعة ان تجد ظل السخرية على شفثيه لكنها وجدت ابتسامة عذبة، وتابع يقول:

«انني اعني ما اقول، فانت طرية العود وممشوقة القوام».
ردت بابتسامة عادية:
«شكراً لك».

في كل حال، انها ايام قليلة وتتخلص نهائياً من تساؤلاته المخرجة المستمرة، وكذلك من خوفها عندما يكون موجوداً.
وفجأة سألتها:

«هل انت على ما يرام؟»
صدمها السؤال، فقالت متلعثمة:
«لماذا، انا... انني بخير، لكن لماذا تسأل؟»
«تبددين شاحبة، ويجب ان لا تواصلتي التدريب اذا كنت متعبة او منزوعة من شيء ما».

ثم سألتها دون مقدمات:
«هل ازعجك لوري؟»
رفعت فانيسا رأسها باتجاهه دون ان تفهم ما الذي قصده بالسؤال:
«لوري؟ انا لا افهم ما تقول؟».

«لقد ذهبت هذا الصباح لمقابلته... وعندما عدت كنت في حالة يرثى لها».
هزت رأسها وقد غامت الدنيا عن نظرها:
«لا ابداً لم يكن هو... كان...».

ثم توقفت ونظرت اليه قائلة:
«ارجوك، لا اريد الخوض في هذا الموضوع».

ودون ان تشعر تراجععت عدة خطوات عن كال الذي لاحظ الامر فوراً.
سألها بقسوة:

«لا تقولي انني اخيفك؟».

«لا... فقط عندما...».

توقفت مرة اخرى وقد تسلمت مشاعر الضيق مرة اخرى الى صدرها فكادت ان تحمد انفاسها. قالت:

«لا... ارجوك دعنا نواصل الدرس».

قال:

«لا استطيع تدريبك وانت في هذه الحالة، ليس وانت خائفة مني بشكل واضح».

انفجرت في وجهه صائحة:

«لست خائفة منك. ليس عندما تدريبي، فانت رائع عندها. لكن عندما تبدأ بطرح اسئلتك فاني... فاني لا اريد...».

واختفى صوتها في حنجرتها. لم يعد هناك مجال، فهو لن يتركها الآن. ليس قبل ان تخبره الحقيقة كلها، او الاصح قبل ان يجبرها على الاعتراف بالحقيقة. لكن ابداً... ابداً... حدثت فيه بقوة ثم تراجعت مرعوبة. واستدارت راكضة الى غرفة تغيير الملابس. وقبل ان تغلق الباب وراءها كان هو هناك ليمنع اختفاءها.

قال:

«بحق السماء اينها الفتاة، ما الأمر؟».

«اذهب عني. اريد ان اغادر المكان فوراً» ثم همست «ارجوك دعني».
«ليس قبل ان تخبريني سبب خوفك. انا لا استطيع ان اتركك على هذه الحال».

«لا اريد ان اتحدث اليك. اذهب عني».

وحاولت يائسة أن تبعدة عن الباب، فكانت كمن يناطح جداراً. لم يتحرك قيد أنملة، لكنه وضع ذراعه حولها كي يستندها.

«لن اذهب. والان اخبريني ما القصة. لقد امضيت النهار كله في البكاء والنحيب، اليس كذلك؟».

لم تجبه. حدثت في عينيه مباشرة، لكنها اضطرت الى تحويل نظرها بفعل تأثير نظراته الحادة. الافضل ان لا تنظر اليه، وهو بالتالي لن يسكها الى ما لا نهاية. ليست مضطرة للكلام. انه لا يستطيع اجبارها على ذلك. لكن

التوتر اخذ يتزايد خاصة انها كانا ملتصقين في ذلك المدخل الضيق،
فحاولت الافلات من قبضته.
طالبها أمراً:

«ألم تمضي نهارك بالبكاء؟ هيا اخبريني».

«اجل.. اجل.. لقد بكيت طول النهار» ثم ارتدت اليه قائلة «والآن
ما الذي ستفعله حول ذلك؟ ماذا يعنيك الأمر في أي حال؟ لا شيء.. انت
مجرد انسان فضولي.. فدعني اذهب فوراً. لا يحق لك ان تمسكني رغماً عن
ارادتي.. انني اكرهك... اكرهك».

«لا. انت لا تكرهيني. وانا فضولي جداً لان بكاءك يتعلق بسبب
وجودك في هذا البيت، اليس كذلك؟».

كيف عرف هذا الامر؟ لم تستطع ان تخفي دهشتها لانه لامس الحقيقة
المجردة، وفي اية لحظة الآن يمكن ان... استجمعت اطراف شجاعته
المتناثرة وحررت نفسها من قبضته، ثم استدارت وحملت حذاءها وملابسها
العادية قائلة:

«الآن سأغير ملابسني، هل تسمعي؟ الآن!».

سألها بنعومة:

«ما هو اسمك الحقيقي؟».

«فانيسا كوليتز. سبق أن قلت لك ذلك».

كان الجواب سريعاً، ولكن ليس بما فيه الكفاية.

«... وسميت ايضاً، أتذكرين انك اخبرتي ذلك؟ لكنني لا
اصدقك!».

«لا يعني اذا صدقت او لم تصدق. فاذهب الى الجحيم. لا اريدك ان
تعلمني شيئاً. انت حيوان ضخم فقط، وانا اكرهك».

خيمت ثوان من الصمت المتوتر على الاثنين اللذين وقفا في مواجهة
بعضهما البعض دون ان يتقوا اي منها بكلمة. وفجأة استدار كال خارجاً
واغلق الباب خلفه، اضطرت فانيسا التي اصبحت داخل الغرفة وحدها
الى الجلوس لان قدميها ما عادتاً تحملانها. من الواضح انه لم يستسلم بعد.
ولذلك عليها مغادرة دينستون هاوس بأسرع ما يمكن. فلو طالت مدة
بقائها في البيت، فان كال سيجد طريقة او اخرى لاكتشاف سرها الدفين.

٧ - حان موعد الرحيل

من الواضح الآن ان ما تخفيه في نفسها سيثقل عليها يوماً بعد يوم.
فعندما دخلت الى المكتبة في الصباح التالي لاستئناف عملها، عاودها
الشعور بالذنب. لعل التواقيع المزورة جربت هنا ساعة بعد ساعة، وفي
لحظة عاجلة دس ابوها الأوراق بين الصحف لان احداً دخل عليه الغرفة
فجأة.. ثم نسيها. وفجأة عادت الى ذاكرتها اشياء قالها جدها وتؤكد
ظنونها. تذكرت كيف احتقن وجهه بأحاسيس مختلفة عندما جاء ذكر
الصحف. لربما عاد الى الماضي حين اكتشف الحقيقة.

ارتدت الرداء الواقعي وبدأت في اعداد مجموعة من الكتب تمهيداً
لفهرستها. كان قلبها مثقلاً بالهموم والاحزان. وبالأضافة الى ذلك هناك
مهمة خاصة مع لوري عندما يأتي الى المكتبة.

حانت فرصتها عندما كانا يجتسيان القهوة عند الساعة الحادية عشرة.
كان قد وضع كتاباً قديماً جداً على الطاولة وتهد بحسرة، فسألته فوراً:
«انت تحب هذه الكتب القديمة، اليس كذلك؟».

نظر اليها وتعبير من الدهشة يملأ وجهه:

«اعتقد ذلك. لكنني لم افكر فيها من قبل. لماذا تسألين عن
الموضوع؟».

«فقط استغربت كيف انك لم تتقدم للعمل في المكتبة عندما عرفت ان
السيد ماكلين يبحث عن شخص لذلك!».

«أنا؟».

هز رأسه بالنفي وقال:

«لم افكر في الأمر ابداً. بالإضافة الى انني اعمل في الحداثق. على كل، عمل المكتبة ليس من اختصاص الرجال».

قاومت فانيسا ضحكة كادت ان تغلق منها عندما قال الجملة الأخيرة.. عليها ان تكون حذرة تماماً الآن.

«بالطبع من اختصاص الرجال». وتابع بسرعة «صدقني، هذا العمل يتطلب الذكاء الحاد والوعي العميق والعناية ايضاً. انني اعرف كثيرين من الرجال في هذه المهنة. وانت بارع فيها جداً».

اجابها وكأنه يفكر في الموضوع:

«هل هذا صحيح؟ كنت اقصد مساعدتك فقط، ولم افكر...».

«ما كنت لاستطيع العمل دون مساعدتك».

لم تكن كاذبة عندما قالت هذه الجملة. والان اتت المرحلة الحرجة. ولنفترض يا لوري - مجرد افتراض - انني لم استطع انهاء العمل لسبب من الأسباب، فهل يمكنك مواصلته؟».

وضع فنجان القهوة على الطاولة بهدوء ونظر اليها بحدة وغضب.

«حسناً، هيا اخبريني الحقيقة!».

«لا شيء.. لا شيء».

قاطعها بسرعة:

«دعك من هذه الادعاءات».

هذه اول مرة يخاطبها فيها بهذا الشكل، وقد صدمها ذلك:

«انني متأكد من ان الملعون كال غرين هو المسؤول. اخبريني ماذا فعل؟».

شعرت بالارتياح لأن تفكيره ذهب في هذا الاتجاه.

غريب كيف تجري الأمور. في البدء اتهم كال لوري، والآن لوري يتهم كال.

«كلا يا لوري. ليس الأمر كما تظن. فأنا...».

«اسمعي جيداً، كنت امس على حافة الانفجار باكية. وانا لست غيباً بحيث لا ادرك الحقائق».

«لم اقصد ذلك ابداً».

لامست ذراعه بيدها وقالت:

«لقد تلقيت انباء سيئة عن... عن قريب لي، وهذا ما ازعجني. اؤكد لك ان الأمر لا يتعلق به. كل ما في الأمر انني لست متأكدة من استمرارتي هنا طويلاً ولا اريد ان اترك... السيد ماكلين...» وكادت كلمة جدي ان تغلق منها، لكنها استدركت متابعة: «في مشاكل عديدة. هذا كل ما في الأمر».

حلق لوري بيدها المريحة على ذراعه ثم غطاها بيده الأخرى. قال بنعومة:

«من الصعب علي ان ارفض لك طلباً. ولكني لا اريدك ان ترحلي وانت تعرفين ذلك تماماً».

سكت قليلاً ثم اضاف بابتسامة هادئة.

«هل تبقي هنا اذا رفضت ان اقوم بالعمل؟».

هزت رأسها قائلة:

«لا استطع. سأبقى حوالي اسبوع تقريباً، وبعده سأرحل. ارجوك يا لوري، ما ذكرته لك الآن اريده ان يبقى معك سرّاً. واعتقد انني استطع الثقة بك، اليس كذلك؟».

قال لها مؤكداً:

«اعدك بأنني لن اخبر احداً. لكنني سأحاول اقناعك بالعدول عن الفكرة».

ابتسمت له قائلة:

«شكراً لك. اشعر الآن بتحسن كبير. والآن، اليس من الأفضل ان تشرب قهوتك قبل ان تبرد؟».

وعندما استدارت مبتعدة عنه عادت اليها الموموم دفعة واحدة. كان عليها ان لا تأتي ابداً. فالسيد مورتون كان محقاً في تحذيراته من الخدع والحيل والأكاذيب. لو انها استمعت اليه لنجت من كل هذه المأساة.

عملت فانيسا خلال اليومين التاليين بجد ونشاط في محاولة لانجاز القسم الأكبر من العمل قبل ان يحين موعد ابلاغ جدها بأنها راحلة. كل وجبة طعام معه تحولت الى عذاب شديد، زاد فيه كال غرين الذي اخذ يعاملها بتأديب جاف وكأنه يهينها. كان يراقبها ويستظر حتى تقدم على خطوة خاطئة كي يهاجمها، فشعرت بأعصابها تكاد تنفجر. وفي احد الأيام كانت

لوحدها في المكتبة عندما دخل كال. وعلى الفور استنفرت قواها وجلست تنتظر ما يمكن ان يحمله لها هذه المرة.
كان هادئاً ولا مبالياً. قال لها:

«آسف لازعاجك، لقد جئت آخذ أحد الكتب».

وسار الى زاوية الكتب الحديثة التي ليست من اختصاص فانيسا. راقبته وهي تتمنى ان ينتهي بسرعة ويغادرها كي تعود الى عملها. وصل الى الرف المقصود وسحب احد الكتب بعد ان بحث في المجموعة كلها. سمعت فانيسا تنهيدة ارتياح منه عندما عثر على الكتاب. وفجأة التفت اليها وقال بنبرة هادئة مؤدبة:

«يجب ان تخبريني كي انزل مجموعة الجرائد من غرفتك عندما تنتهين منها».

وجاهدت فانيسا كي تخفي اثار الصدمة التي اثارها فيها ذكر مجموعة الصحف. فمئذ ان وجدت الورقتين لم تعد قادرة على لمس اي صحيفة بل اعادت المجموعة الى الصندوق ورمتها في احدى الزوايا بعد ان غطتها بمجلات نسائية حديثة.

«لم... لم انظر اليها بعد بسبب ضيق الوقت».

خفق قلبها بشدة بحيث شعرت به وكأنه يريد الخروج من صدرها. ترى هل اثار موضوع الصحف عامداً؟ هل عرف القصة؟ ثم تابعت: «يمكنك ان تنزلها ساعة تشاء، فسانظر اليها في وقت لاحق بعد ان انتهي من العمل هنا».

واشارت بيدها الى مجموعات الكتب المصفوفة خلفها.

همهم صامتاً ثم استدار:

«سأذهب واحضرها الآن».

تردد امام الباب قليلاً وقال:

«آسف، الست قادمة معي؟».

«بلى».

وضعت فانيسا البطاقة من يدها واتجهت نحو الباب. عضت شفتها السفلى وهي تفكر، لقد احست توبيخاً مقصوداً في كل كلمة او حركة اقدم عليها، كما احست شكاً عميقاً وقلقاً مربعاً ايضاً. فتح لها الباب وافسح

المجال كي تمر، ثم سار معها باتجاه السلام. قلبها ما زال يخفق بسرعة، لكن ليس بعامل الخوف بل لانه يسير الى جانبها. قطعاً الصالون والسلام والمرات بصمت مطبق، لم ترد ان تحطمه لثلاً يبدأ بطرح اسئلته الاستفزازية المعتادة.

وصلا الى باب غرفتها، فانتظر كال حتى فتحت فانيسا الباب ودخل خلفها:

«هناك، في الصندوق اسفل النافذة. لقد وضعت بعض المجلات فوقها. لحظة من فضلك».

رفعت المجلات الخاصة عن الصندوق وراقبته وهو يحملها بسهولة. ثم التفت عيناه عينيها وقالت بنعومة:

«هل المجموعة كلها هنا؟».

«اجل، كلها».

وادركت فجأة ان الورقتين اللتين سببتا لها كل المتاعب ناقصتان. اغمضت عينيها للحظات وكأنها تعتصر الألم الذي انتابها. آه لو انها لم تعثر عليها. فتحت عينيها لتجد كال يحدق بها وكأنه عرف كل شيء. احست بالأم حاد يطعن في صدرها ويقطع انفاسها. لا يمكن ان تحتل الأمر أكثر، ستجن اذا لم تهرب من هذا الرجل. استدارت بسرعة واتجهت نحو الباب غير مبالية اذا كان سيلحق بها ام لا، فهي لا تستطيع ان تبقى معه في الغرفة نفسها. اغلقت الباب خلفه بهدوء، وانتظرت حتى ابتعد قليلاً ثم لحقت به. سارت ببطء كي تبقى على مسافة بينهما. وجاهدت حتى لا يبدو الأمر متعمداً، وفي الوقت نفسه حتى لا تسير الى جانبه.

وصل الى المكتبة قبلها بوقت طويل، بينما تباطأت هي قليلاً في القاعة الرئيسية.

«لقد اعدت الصندوق الى المكان الذي كان فيه».

«شكراً لك».

اغلقت الباب خلفه بسرعة. لفت نظرها الفراغ الذي تركه عندما سحب الكتاب قبل قليل، وقبل ان توجه الى رف الكتب الفت نظرة خاطفة على الباب كي تتأكد من انه لن يعود. مجموعة الكتب على الرف كانت متشابهة في اغلفتها وطباعتها. حملت الكتاب المجاور لذلك الذي

اخذه فوجدت انه يتعلق بالسياحة والأسفار. عادت الى ذهنها على الفور حقيقة ان كال يكتب كتاباً عن الرحلات، لربما احتاج الى مرجع لذلك. اسم المؤلف هو كالوم كيل. ولاحظت فانيسا ان الاسم الأول للمؤلف هو نفسه اسم كال الكامل. قلبت الغلاف الأخير لتتأمل الى صورة المؤلف فوجدت رجلاً كث اللحية اسودها. ثم امنت النظر اكثر. وكم كانت دهشتها كبيرة وعميقة عندما تأكدت ان الرجل ليس الا كال نفسه. اذن كال غرين هو نفسه كالوم كيل الكاتب والرحالة والاذاعي المعروف. حدثت فيه وهما الى المائدة وتساءلت في نفسها: كيف لم تعرف شخصيته من قبل؟ كانت قد قرأت له كتابين واستمتعت بهما، خاصة انه يتمتع بتلقائية صافية في اسلوبه بحيث يشعر الانسان الذي يمضي ساعات في القراءة بانه مسافر معه فعلاً، في الصحارى، ومع الرعيان في الجبال. لم تكن تتصور هذا الأمر. هذا الرجل هو كالوم كيل. من السخريه ان يتهمها باستعمال اسم مستعار بينما هو يحتجى خلف شخصية اخرى. هناك اختلاف بالطبع، فاسمه المستعار كان لأغراض الكتابة. ولعل هذا هو السبب الذي جعله حساساً تجاه اسماء الآخرين. مدت فانيسا يدها لتناول قطعة من الحلوى وهي تتسائل عما اذا كان بإمكانها الهرب. بدأت تحس بأنها مقيدة في هذا البيت. لذلك قررت الذهاب في نزهة قصيرة، خاصة ان الأمسية دافئة ومعمرة ومنعشة. . . وهي تحتاج في جميع الأحوال الى مجال لتقليب أمورها.

وبينما هم يغادرون غرفة الطعام سألت جدها قائلة: «ارغب في القيام بنزهة قصيرة حتى الباب الخارجي، فهل هناك مانع؟»

«بالطبع لا. اذهبي حيث ترغبين». «شكراً لك. انا بحاجة الى بعض الحركة، والأمر مناسب في هذه الليلة. سوف اصعد لاحضار معطفي الربيعي». ولم تنتبه، عندما استدارت خارجة، الى النظرة التي وجهها جدها الى كال.

سارت نزولاً باتجاه الباب وهي تستنشق بعمق النسيم المسائي المنعش. قسم من الممر كان مظللاً باغصان الشجر، اما القسم الثاني فقد زينته

الزهور المتنوعة. ما حدث لها كان الأسوأ، ومن غير المتوقع ان تقع اشياء اكثر سوءاً. لقد بدأت طاقتها تنحفت تدريجياً وزاد توترها العصبي، كما تلاشت شهيتها حتى للاطباق اللذيذة التي تعدها السيدة بانكس.

الآن، وقد أصبحت بعيدة عن البيت، يمكنها ان تفكر بهدوء وموضوعية. ففي الداخل كانت الضغوط تزيدها توتراً، خاصة بوجود كال وجدها الذي تبين لها يوماً بعد يوم انه ليس الرجل القاسي الذي وصفه لها ابوها. صحيح انها لاحظت عنده نزعة الى القسوة في بعض الأحيان، لكنه اجمالاً الرجل الخنون والمحب واللطيف. لقد اهتم بها يوم الأحد بحيث ظل مع «موظفته» يروي لها القصص الطريفة عن اسفاره واعماله ويرفقه عنها على حساب اعماله الخاصة. هذا الجانب من شخصيته بالاضافة الى شيء عمدت دائماً الى تناسيه وطمسه ادبا الى تغيير نظرتها. لقد كان ابوها ضعيفاً وغيباً. . . والآن محتالاً ايضاً.

وصلت الى الباب الخارجي وتوقفت عنده، ثم اطلقت نظرها في الطريق المتعرج الممتد كشريط رمادي يلتف حول التلال والوديان. وعلى تلة بعيدة، بعيدة. . . التمتعت مساحات من الثلج الناصع. وركزت فانيسا عينيها على هذه المساحات دون ان تراها بالفعل. . . واخذت قرارها النهائي. يجب الا تكتفي بالهرب. عليها قبل ذلك ان تكتب لجدها رسالة تخبره فيها عن الخدعة الخبيثة التي خططت لها انطلاقاً من فكرة الانتقام الخاطئة. انها مدينة له بهذا الايضاح. وسوف تنهي رسالتها بطلب المغفرة منه دون امل بالحصول عليها. ليست هي ابنة ابيها؟ او لم يخدع ابوها اباه ايضاً؟ فاندرو ماكلين لا يمكن ان يقبل حفيذة تسير على المنهج المخادع. حبست دمعات حارة في عينيها. لا بكاء بعد اليوم، فقد انتحبت مافيه الكفاية. كال غرين سيشعر بالارتياح لانه كان محققاً حول شخصيتها. ورغم كل شيء تساءلت فانيسا عما اذا كان سيرتاج فعلاً. كان يبدو على كال الاعجاب الشديد باندرو ماكلين. وفي حال اقدامه على الزواج من هيثر واقدام اندرو على الزواج من آن ماكري، فانها سيصبحان اقرباء. شدت فانيسا قبضتها على خشب الباب وهي تستعيد منظر الأربعة في غرفة الطعام. كانوا يتحدثون ويضحكون ويتسامرون بينما هي الغريبة بينهم. استدارت عائدة الى البيت. لعل هيثر بدأت الآن اخذ دروس في الجيدو،

ولكن فانيسا لم تتصور انها ستسمح لشعرها المصفف بعناية ان تبعثره الحركات والسقطات. وكيف يمكن ان ترندي بزة التدريب على حساب الفسائين الانيقة الباذخة؟ تمايلت على شفتي فانيسا ظلال ابتسامة وهي تتصور المشهد، لكن المؤسف انها لن تكون هناك لتشاهد بنفسها. . . فتلاشت البسمة بسرعة.

اسرعت عائدة الى البيت. . . فبعد ان حزمت امرها حول الرسالة عليها ان تكتبها باسرع وقت ممكن.

كانت الأضواء تشعشع في معظم غرف المنزل. توقفت فانيسا للمحطات تتأمل هذا البيت الكبير الهادي. لا غرابة في ان كال قصده لانجاز كتابه، فاية اجواء افضل يمكن ان يتوقعها المؤلف؟ ولا غرابة ايضاً في ان جدها يعود من اسفاره دائماً - كما اخبرها يوم الأحد - وشعور بالراحة والسعادة بملاؤه لمجرد رؤية البيت. انها تدرك الآن ما قصده من خلال الجو العابق بالسكنينة الذي يحيط بالبيت من جميع جوانبه. عضت شفتها السفلى بشدة. فالقدر يمكن ان يكون قاسياً في بعض الأحيان. لقد اعطاها لمحة مما كان سيكون. . . والآن عليها ان ترحل بعيداً. . . ولا بد من ذلك سريعاً. واصلت سيرها الى المدخل الرئيسي، صعدت الدرجات الحجرية وفتحت الباب على مصراعيه. . . فسمعت الرجلين وهما يضحكان لشيء ما في الصالون.

ركضت فانيسا الى غرفتها وتناولت قليلاً ودفتر الرسائل والمغلفات واستعدت للكتابة.

جاء لوري يوم الخميس كعادته بعد التاسعة بقليل. نظر الى فانيسا فور دخوله المكتبة وقال:

«الم تغيري رأيك بعد؟»

هزت رأسها بالنفي:

«كلا يا لوري، انا آسفة، هل لك ان تقوم بالتسجيل بدلاً مني اليوم؟»

ابتسم بهدوء:

«يظهر انك تريدان تدريبي؟»

«انا آسفة. لم اقصد ان يبدو الأمر كذلك. آه يا لوري انني حائرة

وضائعة».

وضعت يدها على خده، فتقدم منها قائلاً:

«ارجوك يا فانيسا، ارجوك لا تحزني. الا يمكن ان اقوم بأي شيء. . . اي شيء لمساعدتك؟»

«لا، لا يمكنك عمل شيء».

فكرت في الرسالة المكتوبة والمختومة في درج طاولتها، والتي تنتظر التسليم عندما يحين الوقت.

رفع لوري ذقنها باطراف اصابعه بحركة شبيهة بحركات كال وقال:

«لا اظنك ستقدمين على البكاء الآن؟»

لاحظت تعابير وجهه القلقة فقالت على الفور:

«لا، ابدأ».

هي تعرف انها غير قادرة على البكاء حتى لو ارادت.

«الحمد لله».

مرر يده العريضة خلال شعره الكث وهو يتنهد بارتياح واضح:

«ما رأيك لو احضرت لك فنجاناً من القهوة او الشاي؟»

«يا الهي. السيدة باتكس سوف تقيم الأرض ولا تقعدوها!»

«اعرف ذلك. لكنني مستعد لاغضابها ومواجهتها اذا رغبت بفنجان».

«لا اريد ذلك. فقد تناولت فطوري قبل قليل».

كانت الوجبة مرعبة فعلاً، اذ تواجدت هي وكال وحدهما حول المائدة.

هو ببرودته وهدوئه ونظراته الحادة، وهي بافكارها وشرودها. . . والنتيجة

انها لم تأكل سوى قطعة صغيرة من الخبز. فقد كانت متوترة الأعصاب

بحيث انه لو اثار اي موضوع لتركزت المكان على الفور. لكنه لم يفعل، لعله

لاحظ مزاجها المتعكر ورأى المראה التي تملأها والتي لا يمكن ان تنتهي الا

بعدما تتركب سيارتها وتغادر المكان دون عودة.

«حسنًا. اذا اردت فنجاناً، فقط قولي لي. فمن اجلك انا على استعداد

لمقاتلة الأسد. . . اقصد اللبوة».

«شكراً لك يا لوري، فأنت لطيف جداً».

استدار بحياء قائلاً:

«من الأفضل ان نبدأ العمل. فماذا ستفعل الآن؟»

وسأعيد ترتيب هذه الكتب حسب التسلسل.

واشارت باصبعها الى مجموعة من الكتب التي سبق لها ان سجلتها. بدأ العمل الذي يقومون به يعطي ثماره. وكانت تشعر بالارتياح وهي ترى الكتب مرتبة في اماكنها. فخلال اسابيع سيكون كل شيء على اتم وجه في المكتبة. . . لكنها لن تكون هنا لترى اكتمال ما قد بدأت به. غاص قلبها في صدرها عندما خطرت لها هذه الفكرة: لوري سيكون هنا اما انا فلا. اسرعت الى العمل في محاولة لطرد هذه الأفكار المؤلة. وهكذا مضى الصباح مثاقلاً بدون ان يكون لهذا اليوم اي معنى. فجدها وكال سيتناولان العشاء في الخارج، اما هي فستحضر لها السيدة بانكس الطعام الى غرفتها. . . وهذا الترتيب يناسبها تماماً في هذه الظروف. لو انها تستطيع ان تأكل دائماً في غرفتها، حتى لو وجدت السيدة بانكس ذلك متعباً وغريباً. وضعت الكتب التي كانت تحملها في مكانها والتفتت الى لوري الغارق في عمله بجهد ونشاط. احست ببعض العزاء لأنه استطاع ان يستوعب العمل ويقوم به على افضل وجه. ومن الاكيد ان جدها كان سيطلب منه ترتيب المكتبة لو انه عرف سلفاً قدرته على ذلك.

كان بعد الظهر هادئاً بغياب لوري. انتهت فانيسا عملها بحدود الخامسة ثم ألقت نظرة اخيرة على المكتبة قبل ان تتوجه الى غرفتها. تساءلت كيف ستكون العلاقة بين كال ولوري عندما سترحل هي. ربما احسنا بضرورة ان لا يتدخلوا في شؤون بعضهما البعض. لاحظت مرة اخرى الرف الذي سحب منه كال الكتاب قبل مدة، هناك الكثير من الكتب للقراءة. لكنها وجدت نفسها راغبة في قراءة احد كتبه على ضوء اكتشافها لحقيقته وشخصيته. خرجت من المكتبة واغلقت الباب خلفها بهدوء ثم اسرعت الى غرفتها. كانت غرفة كال تقع في الجهة الاخرى من الممر، ومنها سمعت صوت ضربات الآلة الكاتبة، وهو الصوت الذي تردد كثيراً خلال الأيام الماضية. ثم تجاوزت الممر ودلفت الى غرفتها.

عندما بدأت نشرة اخبار الساعة السادسة مساء على شاشة التلفاز، سمعت الرجلين يغادران البيت. وهدوء تام توجهت الى النافذة لترى جدها يدخل في سيارة كال الجاكوار، ثم اقلعا معاً باتجاه الطريق الرئيسي. بعد ساعة ستحضر لها السيدة بانكس عشاءها المكون من وجبة خفيفة،

خاصة ان الرجلين غائبان. وعلى كل فإن شهيتها للأكل خفت كثيراً خلال الأيام القليلة الماضية. انحنت على النافذة ترأب السهول الممتدة حتى الأفق وقد غرق قلبها في لجة الحزن العميق. عاد اليها وجه السيد مورتون الراقص لخطوطها فتخيلت نفسها امامه تعترف له بقسالتها، فهي مدينة له بذلك على الأقل. بعد ذلك سترك شقتها الخاصة في لندن، بل ربما تغادر لندن كلها، الى خارج البلاد. . . فهي لم تعد تحتمل حياة القلق بعد الذي جرى لها هنا. احست ببرودة اطار النافذة تلمس رأسها فتساءلت عما اذا كانت ستصاب بالرشح او الانفلونزا. كان جسدها متعباً، ووجهها ملتهباً بالحرارة الشديدة مع ان موجة من البرودة كانت تسري في اوصالها. ابتعدت فانيسا عن النافذة، فوقعت عينها على كتاب كال، تناولته واقلعت جهاز التلفاز ثم ألقت بنفسها على المقعد الوثير. اعجبته المقدمة التي تحدث فيها عن كيفية تحويله سيارة لاندروفر الى بيت على عجلات، واستعمالها في رحلة طويلة الى مجاهل افريقيا. اعجبته لان الكتاب ليس مجرد رقم على احد الرفوف، بل هو من تأليف الرجل الذي انقذه من اثنين من الرعاع. . . والذي يشك بها ولا يحبها. توقفت فانيسا فجأة عن القراءة وقلبت الكتاب لتعيد التأمل في الصورة المنشورة على الغلاف الأخير. انه يبدو مختلفاً في اللحية، ومع انها لم تعجب به الا انها اعترفت بأن اللحية تناسبه تماماً. احست بعينيه، حتى في الصورة، وهما ترمقانها وتسخران منها بغموض شديد. تنهدت بعمق واعادت فتح الكتاب على الصفحة التي كانت تقرأها. ومع ذلك ظل خيال المؤلف يهاجمها بالحاح رغم انها بذلت جهداً للتركيز على الموضوع. لقد لمسها صاحب الكتاب واحتضنها، بل وعلمها كيف تسقط بأمان. . . كما انه كان لطيفاً في احيان قليلة. واحست فانيسا بدفء يتدفق في كل جسدها وهي تتذكر ذراعيه القويتين وعينييه الحادتين. . . .

اغلقت الكتاب بعنف وتوجهت مرة اخرى الى النافذة. ودون ان تدري احست باصابعها تلامس شفتيها. لقد عانقها بالقوة. . . انه الرجل الأول الذي يفعل ذلك بدون ان يبدو عليه التأثير. وعلى امتداد نظرها ترامت الحدائق والسهول لتقف في النهاية على اعتاب تلال رمادية اللون مكللة بالثلوج البيضاء التي لن تذوب ابداً، لأن الحرارة هناك لا يمكن ان ترتفع

لدرجة تذيب معها الثلج.

سمعت قرعاً على الباب فاستدارت لاستقبال السيدة بانكس، وارتاحت لأنها جذبتها من أفكارها المتضاربة. وبعد أن تناولت الطعام بدا لها كأن الليل يتمطى إلى ما لا نهاية. ولتمرير الوقت انزلت صينية الطعام إلى المطبخ ثم عادت لمشاهدة مسلسل كوميديا يعرضه التلفاز. . . وظلت هكذا حتى حان موعد الأخبار. أدركت أنها لن تستطيع النوم بسبب فكرها المشوش، لذلك قررت القيام بنزهة قصيرة في المساء البارد والمنعش، لعلها تتعب نفسها قليلاً فتعود إلى النوم فوراً.

ارتدت فانيسا معطفاً صوفياً ثقيلاً، واطفأت جهاز التلفاز ثم غادرت المنزل. في الخارج كان الهواء بارداً ومنعشاً. سارت حول المنزل باتجاه المدخل الخلفي، ثم نهاية الممر الذي أصبح أكثر حلكة. توقعت أن تصل إلى موقف سيارات البيت إذا ما أكملت سيرها بالاتجاه نفسه، وبعد دقيقة شاهدت مجموعة من البيوت المسقوفة التي كانت في يوم من الأيام اصطبلات للخيول. كانت مواقف السيارات مضاءة بنور ساطع معلق على سطح أحد البيوت. وقفت تحت النور تتأمل المكان. شاهدت سيارتها خلف باب نصف مغلق، وإلى جانبها مكان خال حيث تقف سيارة كال عندما يكون في البيت. وتساءلت عما إذا كان الرجلان سيتأخران في العودة. هل يمهأ هذا الأمر فعلاً؟ واستغربت كيف جاءها وجه هيثر الجميل وعلى ثغرها تلك الابتسامة الموجهة إلى كال.

حسّت فانيسا خطواتها بسرعة، وقد صممت على اكتشاف نهاية هذا الممر قبل مغادرة البيت. وكلما توغلت في الممر، كانت الأشجار تزداد كثافة، والطريق يتعرج ويضيّق، والظلام يشتد حلكة. ولم تكن تسمع سوى وقع خطواتها على الحصى. . . وزقزقة عصفور أزعه وجودها في ذلك الوقت.

وأخيراً وصلت فانيسا إلى البحيرة. كانت صغيرة المساحة وفي وسطها جزيرة موصولة إلى البر بجسر خشبي جميل تزينه صخور رصفت بشكل هندسي بديع. وعادت إلى ذهنها صور غامضة عن مكان معين حدثها عنه أبوها كساحة أمضى فيها طفولته الجميلة. لا شك أن هذا هو المكان. البحيرة والجزيرة، ملعب خصب لمخيلة طفل غض. طفرت الدموع من

عينها لأن الذكرى أعادت إليها كل الماضي بأحزانه وآلامه.

اقتربت من الجسر حتى وطأت عتباته الأولى. الخشب عتيق ويحتاج إلى دهان جديد، لكنه ما زال صالحاً للاستعمال. جربت بقدمها قدرة الخشب على الاحتمال، فسمعت صريره في سكون الليل الدامس. . . ومن مكان ما حمل الصدى نقيق يوم بعيد. استدارت مبتعدة عن الجسر. لن تقدم على زيارة الجزيرة الليلة، لعلها تفعل غداً. ولكنها تدرك في قرارة ذاتها أنها لن تطأها أبداً، لا اليوم ولا غداً. . . ولا بعد غد.

وفي مكان مظل على البحيرة عثرت فانيسا على مقعد خشبي تظله نباتات عالية. جلست عليه لتراقب بعض الزهور التي أينعت ورودها على سطح البحيرة الساكن. ووسط السكون الطاغي انهمرت ذكرياتها بشكل ملح. ذكريات عن والدها عندما كانت أصغر سناً وأكثر انطلافاً وفرحاً. . . هكذا تصورت تلك المرحلة التي كانت تعتقدها أفضل سني حياتها. وبعد ذلك جاءت المأساة التي دفعت فانيسا إلى هذا المكان سعياً للانتقام.

لقد انتهت الرحلة تقريباً إلى الفشل الذريع. وحيدة؟ صحيح أن لديها العديد من الأصدقاء من الجنسين، لكن هؤلاء كلهم لا يحلون المشكلة. فهي قد شتمت من الاستغلال المطلقه وبانت بحاجة إلى من تعتمد عليه. خيمت الوحدة على عينيها ووجهها وهي تحديق في الظلام اللامتناهي. وفي هذه الأثناء بدأت نجوم متفرقة تلمع في السماء الصافية وقد ازدادت برودة الهواء. لم تشعر فانيسا، مرة في حياتها، بالوحدة والضيق كما تشعر الآن. دأمتها موجة مفاجئة من البكاء واليأس فدفنت وجهها بين راحتيها وأخذت تنتحب بصمت.

كانت على هذه الحال عندما عثر عليها كال بعد عدة دقائق. لم تره في بادئ الأمر، بل لم تر شيئاً لأن عينيها كانتا غائبتين خلف راحتيها المتماسكتين. وعندما شاهدته، رأت على وجهه تعابير جدها نفسها عندما عثر عليها وهي تنتحب في غرفتها. تهذلت كثفاها باعيا حتى بدت وكأنها ستتهار تحت وطأة الهم والتعب، في حين وقف كال غرين قبالتها يراقبها بصمت واهتمام بدون أن يبدي وجهه أية تعابير أخرى، وكأنه يرتدي قناعاً.

واخيراً تقدم منها ولمس كتفها بلطف:
«فانيسا؟»

نظرت اليه فزعة وقالت:
«ارحل عني!»

خرجت العبارة من فمها دون ادنى تفكير، انها لا تريده الآن، بل لا تريد اي انسان في هذه اللحظات. لكنه موجود الى جانبها سواء ارادت او لم ترد.

«لن ارحل. لقد تأخر الوقت وخيم الظلام، وربما وضعت في الحداثق!»

تضيق؟ ياله من تعبير طريف! لو انه يعرف فقط كم هي ضائعة فعلاً. ولا اريد الذهاب. انا اعرف طريق العودة وحدي. فدعني على انفراد، ارجوك.

نظرت اليه مباشرة غير مبالية بما يمكن ان يلحقه في وجهها. لا شيء يهم الآن، فقط تريد ان ترحل بعيداً... بعيداً.

«هيا بنا، فالبرودة أصبحت قاسية وقد بدأت ترتجفين».

كانت ترتجف بالفعل مع انها لم تحس بذلك. مررت راحتها على ذراعها فشعرت بقشعريرة البرد. وبينما هي كذلك سمعت خفيف قطعة ثياب. ثم شعرت بدفع سترته السميك على كتفها. مدت يدها تلامس السترة الجلدية وهي تقول:

«لكنك».

«اجل. ويمكن ان اظل الليل كله في هذا المكان مرتدياً قميصي فقط. فهلا آتيت معي؟»

وجدت فانيسا نفسها واقفة على قدميها بدون ان تدري ما اذا كان قد ساعدها على النهوض ام انها استطاعت ذلك بمفردها. سارا باتجاه البيت وقد عاد الدفء يسري في جسدها وقد شددت السترة بيديها الاثنتين.

قالت بعد لحظات من الصمت الثقيل:
«شكراً لك لانك اعرتني السترة».

نظرت اليه وهو يسير الى جانبها في حين ظهر قميصه الابيض واضحاً في ذلك الظلام الحالك:

«لكن هل انت متأكد...؟»
قاطعها قائلاً:

«انا لا اتأثر بالبرد».

«هل تشعرين؟»

كانت يده دافئة. لم تستمر اللمسة الا لحظات قليلة، لكن فانيسا ظلت تحس بدفئها حتى بعد ان سحب يده... ثم انتقل هذا الدفء بسرعة بحيث شعرت ان جسمها كله يشتعل.

وقالت بسرعة في محاولة لاخفاء اضطرابها:
«لم اعتقد انك ستعود باكراً».

«كلا. نحن اجمالاً لا نعود باكراً. لكن السيدة ماكري لم تكن على ما يرام لذلك...»

ثم توقف. وفكرت فانيسا بسرعة: من الاكيد ان هيثر لم تكن مسرورة لذلك.

«لم يكن النور مضاء في غرفتك، وقد ابلغتنا السيدة بانكس انها سمعتك تغادرين البيت منذ مدة طويلة».

هل صحيح انها امضت زمناً طويلاً في الخارج؟ لقد بدا لها الوقت مجرد لحظات فقط...

«لذلك فكرت ان القي نظرة لأرى ما اذا كنت قد ذهبت بسيارتك، ولما وجدت السيارة في مكانها تأكدت من انك في نزهة ليلية... وهكذا وجدتك».

لم يكن هذا هو كال الذي تعرفه. شيء ما غير عادي موجود في تصرفاته، لكن فانيسا لم تستطع ان تحدد بأي شكل هو مختلف. لقد احست بالتغيير، وظلت حائرة حتى اوت الى فراشها فبدأت تعيد رسم الصورة بوضوح.

بعد ساعة كانت تجلس في فراشها تتناول فنجاناً من الشوكولاته الساخنة، استعادت رحلة العودة مع كال من البحيرة، وفكرت فيها بهدوء وروية. لم تكن قادرة ان تفعل ذلك عند وصولها لأن جدها كان بانتظارها قلقاً، وفور رؤيتها قال:

«ها انت قد رجعت. هيا ادخلي يا عزيزتي... هيا ادخلي...»
واحتضنها بين ذراعيه وادخلها الى الصالة. ولسوء حظ فانيسا زاد هذا
التصرف الأبوي من حدة افكارها المتناقضة فيما يتعلق بالموقف من جدها
كما هو في الواقع وكما رسمه لها والدها من قبل.
تمكنت من الانسحاب بعد قليل مدعية بأنها متعبة، وطلبت منها الأذن
بالانصراف، فأذنا لها. لكن تعابير كال ظلت مسيطرة عليها حتى وهي
مستلقية في فراشها الآن تشرب فنجان الشوكولاته اللذيذة التي اعدتها
السيدة بانكس.

انها تدرك مغزى التغيير الذي حصل، لقد كان يتصرف بطريقة مختلفة
تماماً، بل انه ينظر اليها بأسلوب مختلف عن تلك الطريقة الباردة التي كانت
تشعرها بعدم الارتياح. كان كمن اكتشف شيئاً جديداً. لكن ما هو هذا
الاكتشاف؟ وظل السؤال يحير فانيسا لفترة من الوقت. ثم جاءها الجواب
ومعه الشعور بالانزعاج: لا شك انه عرف من هي في الواقع! وضعت
الفنجان من يدها خوفاً من ان تسكبه على نفسها بفعل الاضطراب. «آه يا
ربي» نظقت هذه العبارة بصوت عال رغماً عنها. انه يعرف. لم تكن تعلم
كيفية اكتشافه للحقيقة، لكنها متأكدة من الأمر. ولهذا السبب عليها ان
ترحل في اسرع فرصة، عليها ان تغادر دينستون هاوس الى الأبد.

٨ - جاء زمن الحب!

استعادت فانيسا هدوءها في صباح اليوم التالي، وتوجهت لتناول
فطورها وهي على اتم الاستعداد لكل الاحتمالات. لو اراد كال ان يثير
موضوع شخصيتها مجدداً لكان فعل ذلك مساء امس عندما كانت ضعيفة
ومتهارة وقابلة للهزيمة. لكنه لم يفعل. هل يعني ذلك انه يخشى المعركة الى
وقت لاحق؟ لم تجد فانيسا جواباً، الشيء الأكيد انها يجب ان ترحل
بسرعة. لذلك ستغادر دينستون هاوس غداً السبت، بعد ان تضع الرسالة
بشكل تستطيع السيدة بانكس ان تعثر عليها فوراً.

وخلال النهار، راقبت فانيسا لوري وهو يعمل في المكتبة فهي تريد ان
تأكد من انه قادر على اتمام العمل على الوجه الأكمل قبل مغادرتها. لن
تخبره بموعد رحيلها، لكن وداع الغداء هذا اليوم سيكون الوداع الأخير
دون ان يدري. كان مرحاً كعادته واكثر، وكأنه اراد ان يبعد عن فكره
حقيقة كونها راحلة. وعند الساعة الحادية عشرة تناولوا القهوة معاً. وقد كان
من الواضح ان لوري يتمتع بعمله، اذ انه مضى في حديث لا ينتهي عن
الكتب ومحتوياتها وسجلاتها. ارتاحت فانيسا لهذا الجو، لأنها لن تضيف
عقدة ذنب جديدة بسبب المكتبة الى العقد العديدة التي تشعر بها حالياً.

عند الساعة الواحدة نظر الى ساعته وانتصب واقفاً وهو يقول:
«حسناً سأذهب الآن، فعلياً انجاز بعض الأعمال في الحديقة. انني
احب هذه الحياة: المكتبة... وانت عند الصباح، والحدائق بعد الظهر».
ابتسمت فانيسا:

«انا مسرورة لذلك. فقط استغرب كيف انك لم تكتشف قدرتك في هذا

العمل قبل الآن وتتقدم له... فأنت قادر عليه افضل مني». هز رأسه قائلاً:

«مستحيل. فما كنت لأقبل العمل في المكتبة اساساً لو لم ألتقي بك في الممر ذلك اليوم».

ابتسمت:

«شكراً لك يا لوري، ووداعاً».

وكانت تريد ان تضيف شاكرة اياه على المساعدة التي قدمها، لكنها خشيت ان يشك فيها. لذلك اكتفت بالصمت وراقبته وهو يتجه نحو الباب.

قال:

«سأراك اذن يوم الاثنين»...

وأغلق الباب قبل ان يهمس:

«لا... لن تراني بعد اليوم».

انتظرت في المكتبة للحظات كي تتأكد من مغادرته البيت، ثم خرجت بدورها.

كان كال بمفرده في غرفة الطعام، فأخذت فانيسا نفساً عميقاً وانجذبت الى مقعدها:

«ارجوك. لا تزعج نفسك بالوقوف».

نظقت بهذه العبارة عندما حاول الوقوف ليرحب بها. جلست وهي تنظر اليه ببرود، اذ ان شيئاً ما تغير في علاقتها بعد احداث الليلة الماضية قرب البحيرة. كانت تتوقع ان تشعر بالخوف من الحقائق التي يعرفها. ولكن لاستغرابها الشديد لم تخف، ولم تعرف السبب في ذلك. فكرت وهي تتناول الحساء: لعل السبب يكمن في انها ستغادر المكان قريباً ولن تراه بعد ذلك ابداً. وقفت يدها بملعة الحساء قريباً من فمها. لن تراه ابداً... ابدأ! ثم نظرت الى اعلى وتساءلت بصمت: هذا اغرب وقت ممكن ان يكتشف الانسان انه يجب الشخص الذي اعتقد انه يكرهه.

اعادت الملعقة الى طبق الحساء، فنظر كال اليها قائلاً:

«وما الأمر؟ هل الحساء سيء؟».

«كلا، كلا... فقط...».

كم سيبدو الأمر مضحكاً اذا ابلغته الحقيقة وقالت «لقد ادركت لتوي انني لا اكرهك ابداً، بل اعتقد اني احبك كثيراً». وتخللت الضحكة المجلجلة التي سيطلقها عند سماعه كلامها... لذلك قالت:

«لا اريد هذا الحساء!».

اما هو فقد رفع حاجبيه استغراباً.

«لكنك منذ مدة لا تأكلين اي شيء. هل انت مريضة؟».

«لا... لست مريضة».

واضافت لنفسها بائتهال: «ارجوك دعني لوحدي... ارجوك دعني لوحدي» الآن فقط عرفت سر حفظها لتفاصيل وجهه الكاملة منذ اللحظة الاولى التي طالب فيها بمعرفة اسمها. لم يعد في اليد حيلة، عليها ان تعيد النظر الى ذلك الوجه ذي الملامح الداكنة، المليء الآن بالقلق. كال قلق؟ من الصعب ان تصدق، لذلك قررت مغادرة الغرفة.

وقفت فجأة:

«اريد ان اعود الى غرفتي، ارجوك ان تعذرني وتبلغ السيد ماكليين...».

وكادت ان تقول جدي دون وعي:

«بلغه انني متعبة قليلاً».

وخطت باتجاه الباب بدون ان يحاول كال ايقافها او حتى النطق بكلمة واحدة. وشكرت فانيسا ربه لأن كال لم يحاول منعها، فلو فعل لكانت انفجرت باكية.

انتظرت حتى سمعت جدها يدخل الى غرفة الطعام، فنسلت من غرفتها وغادرت البيت. سارت بدون هدف، فقط تريد الابتعاد عن المنزل لفترة قصيرة. اسرعت الى موقف السيارات فوجدت الباب مفتوحاً وسيارتها تنتظر.

عشت اصابعها في حقيبة يدها حتى عثرت على مفاتيح السيارة، ثم عبرت بسرعة الى الموقف، لم يدر محرك السيارة في بادئ الأمر، الا انه زجر اخيراً بعد محاولات عدة. انها بحاجة الى نزهة قصيرة تعيد الوضوح الى ذهنها والطمأنينة الى نفسها، هي تعرف الى اين تقصد. فالطريق تمتد متعرجاً بين التلال باتجاه ما كان في الماضي قرية صغيرة منعزلة. اما الآن

فلم يعد هناك الا جدران شبه مهدمة صارت مأوى للقطعان عندما نهب الرياح العاصفة. صحيح ان المنطقة خالية جداً الا انها تبعث الطمأنينة في النفس.

قادت سيارتها بانجاء الباب الرئيسي، فالتفت بلوري الذي لوح لها بيده. ربما من الأفضل ان تكتب له كلمة قصيرة، فهذا حق الصحة عليها.

سار الطريق متعرجاً في ذلك المساء البارد المنعش، فانزلت فانيسا شباك سيارتها تاركة الهواء ينساب ناعماً على وجهها وشعرها. حان وقت تأمل الطبيعة لاختران بعض جماها للأيام الصعبة الآتية. ان قلة من الناس يقصدون هذه الناحية. الى اليسار منها تناثرت مستنقعات وبحيرات لا حصر لها، اما الى اليمين فقد كانت التلال موزعة بدون ترتيب. اعجبت فانيسا بعزلة هذه المنطقة عن العالم وتساءلت عن كيفية العيش بعيداً عن كل الناس، وسط الاشجار والنباتات والمياه والتلال التي تغطيها الثلوج في معظم اشهر السنة.

عبرت الممر بانجاء ساحة خضراء قريبة، ثم اوقفت محرك السيارة. خيم صمت شامل لم يقطعه سوى صوت المذياع... قبل ان تسكنه فانيسا ايضاً، وتبدأ نزهتها على القدمين. تريد ان تفكر بالاكتشاف المفاجيء الذي دامها بشأن مشاعرها تجاه كال. اذ حتى الموسيقى كانت تتأمر عليها، فالأغنية العاطفية التي كان يبثها المذياع انسابت بموسيقى شجية أسرة بحيث لم تستطع فانيسا الا ان تتذكر كال عندما جاءت كلماتها التالية: ولكن لماذا احبك؟ اتمني لو استطيع الهرب من قسوتك وجفائك... لذلك اسكت المذياع بنزق واغلقت باب السيارة خلفها بقوة. انها مجرد صدفة. همست لنفسها تردد كلمات الأغنية ولكن لماذا احبك؟

لم تستطع مقاومة وجه كال عندما طغى على مشاعرها وافكارها، والصورة التي عادت الى ذهنها هي صورته اللقاء الاول في المقهى حين رفع عينيه عن الصحيفة واختلس نظرة خاطفة اليها، وكذلك صورته عندما تغلب على الشابين بسهولة عجيبة، ثم نقاشهما الحاد في اكثر من مناسبة. وتذكرته لطيفاً في عناق، قاسياً في تساؤلاته الملحة، واخيراً الاهتمام البالغ كما حدث اليوم. ولكن الحدث الأهم كان مساء امس عندما احست بدفء

سترته يلامس كتفيها الباردتين. كان طريق العودة الى البيت مختلفاً تماماً امس، والآن فقط ادركت لماذا. فلا شك انه عرف الحقيقة. اخذت نفساً عميقاً وجلست على اطلال حائط زراعي مهدم ثم مدت يدها الى نعجة كانت تراقبها بخوف. همست لها: «تعالى!» لكن النعجة هزت رأسها واستدارت بعيداً.

الصمت في كل مكان. ومن البعيد كانت تأتي بين الحين والآخر اصوات بعض الحيوانات. لا سيارات ولا ناس، فقط سكوت هذه الأمسية الصيفية الدافئة التي كانت نقطة تحول في حياة فانيسا. فلم تكن تتصور نفسها في علاقة حب، ولم تكن تتصور انها ستنتظر الى رجل ما وتحس هذا الخدر اللذيذ الذي ينشأ عن الشعور بالحب.

«يا الهي كم كنت غبية!» اطلقت هذه الصيحة بصوت عال مطمئنة الى ان احداً لم يسمعها. منذ انطلاقتها من لندن الى اسكتلندا وهي تتساءل عما اذا كانت ترتكب خطأ جسيماً بمغامرتها هذه. والآن جاء الجواب بالايجاب. اذ بعد ان التقت جددا وتعرفت اليه ولو بشكل غير كامل، فإنها حصلت على صورة اشمل من تلك التي قدمها لها ابوها. نظرت فانيسا الى احد البيوت المجاورة دون ان تستطيع الرؤية، فقد كانت افكارها مع والدها الذي احبته بجنون... والذي ادركت الآن انه ارتكب اخطاء وسيئات مثل اي انسان آخر، ولربما اكثر من اي انسان آخر. واكثر ما ألمها، معرفتها بأن الانسان الذي احبته بعمق ليس كاملاً. عليها ان تتلف الورقتين الشاهديتين قبل رحيلها. وذلك من اجل ابيها وجدها على حد سواء. ثم ستبني حياة جديدة بعيداً عن آلام الماضي، والزمن كفيل بالجراح العميقة، وستجد بعد حين ان دينستون هاوس والناس الذين يعيشون فيها هم مجرد ذكرى لا تحرك في نفسها شيئاً. ربما...

وقفت فانيسا فجأة واستأنفت السير. ما تحتاج اليه الآن، ان تهيم على وجهها في الريف بدون هدف ويدون ازعاج من احد. خاضت في الحقول الخضراء الندية وهي تشعر بسعادة غامرة لاحتكاكها بالطبيعة الهادئة الجميلة، وابتعدت عن الطرقات المظروقة فلم تعد تجد الا الاشجار والصخور وبعض الأغنام التي ترعى في ذلك الريف المنعزل. ظلت تصعد في التلال حتى وصلت الى جدول مائي ينحدر عذباً رقيقاً وقد انعكست

عليه أضواء المساء الخافتة. وفقت فانيسا قليلاً واخذت ترتب يديها ووجهها بالماء البارد المنعش، ثم شربت بعض قطرات منه... وتابعت مسيرتها.

ازدادت الأشجار كثافة، ولاحت امامها بداية غابة واسعة من اشجار الصنوبر والسنديان. عما قليل ستدخل هذه الغابة الغامضة وتضيع في لا نهايتها.

دخلت بين الاشجار المشابكة فأحست بالبرودة تشتد بحيث اخذت ترتجف، لكنها واصلت تقدمها وكأنها مسحورة بالخضرة الطاغية المحيطة بها ويصوت تكسر اغصان الصنوبر اليابسة تحت قدميها. الهواء مليء بالرطوبة الباردة، فالشمس لا تصل الى داخل الغابة بل تكفي بملامسة رؤوس الاشجار التي تزداد تطاولاً وضخامة.

وقفت فانيسا في مكانها لحظة واطلقت نظرها الى الأعلى، حيث جذوع الاشجار تمتد وتمتد. شعرت بأن الأغصان تطبق عليها والاشياء تدور حولها بسرعة غريبة مفاجئة، فاستندت الى اقرب شجرة لتتدرك السقوط. وعرفت على الفور انها جائعة جداً فهي لم تتناول على العشاء الا عدة ملاعق من الحساء قبل ان تنظر الى كالم وتكتشف انها تحبه... ويعد ذلك فقدت شهيتها.

بدا لها ان الغابة أصبحت اكثر برودة واشد ظلاماً. فقررت عدم مواصلة التقدم، لم تعد تنفعها الافكار والتحليلات، الشيء الوحيد الباقي لها هو ان ترحل بعيداً... بعيداً... عندما تعود الى دينستون هاوس سوف تجهز حقيبتها للمغادرة. سمعت صوتاً خافتاً يشبه حفيف اوراق الشجر اليابسة عندما تدوسها الاقدام، وعندما خرجت من الغابة اكتشفت ان الصوت ناتج عن المطر الذي بدأ ينهمر خفيفاً. لم تنزعج من البلى، بل رفعت وجهها الى السماء لتستقبل رذاذ المطر المنعش على بشرتها. عادت باتجاه سيارتها وقد اخذت الأرض توكل تحت قدميها.

دخلت السيارة وادارت محركها. علا الزئير وسط الصمت الطاغية، لكن العجلات دارت في مكانها دون ان تتحرك السيارة قيد الخلة. اطفأت المحرك ثم جربت مرة اخرى وقد اعتراها القلق. قفزت السيارة خطوات الى الامام قبل ان تغرق عجلاتها مرة اخرى وتراوح مكانها. اطفأت المحرك

وخرجت لتفحص العجلات، فوجدت الخلفيتين غارقتين تماماً في الوحل. «يا لهذا الحظ السيء!» فبعد كل الذي حصل، يحدث هذا. لو انها انتهت الى المكان قبل ان تتوقف فيه؟ لا فائدة الآن من الوقوف تحت المطر دون معنى... بحثت فانيسا حولها عن اغصان او احجار او ما شابه مما يمكن ان يوضع تحت العجلتين الخلفيتين لمساعدتها على الاقلاع، لكنها لم تجد شيئاً... على الأقل بالقرب منها. وادركت ان عليها العودة الى الغابة لاحضار بعض الاغصان اليابسة. فالمطر يزداد غزارة والظلام يشتد، وكلما اسرعت في الذهاب كان الأمر افضل. ومع انها لم ترحب بفكرة العودة الى الغابة المظلمة الرطبة، الا انها مضطرة لذلك.

توجهت عائدة الى الغابة بخطى مسرعة جداً. فالأمر ملح، والمطر لا يرحم. ركضت نحو اول شجرة وانحنى تجمع الأغصان اليابسة والجذوع المتساقطة... وفجأة سمعت صوت محرك سيارة يزداد وضوحاً كلما اقترب من الغابة. سيارة في هذا المكان؟ وللحظات، وقفت فانيسا في مكانها تصغي غير متأكدة من ان اذنيها لا تخونانها. ليس في الأمر خطأ فصول المحرك أصبح واضحاً وقريباً. اسرعت نحو طرف الغابة ونظرت الى سيارتها غير البعيدة... وهناك شاهدت سيارة كال غرين تقف الى جانبها. تجمدت في مكانها، وخليط من العواطف المتضاربة يعصف بها. ماذا يفعل هنا؟ من الأكيد انه لم يأت صدقة الى هذا المكان بالتحديد؟ هل هو وحده؟ وشاهدته يخرج من سيارته ويتوجه الى سيارتها باحثاً عنها. على الأقل انه ليس مع الجميلة هيثر. فهي لا تحتمل رؤيتها معاً. تذكرت ان حقيبة يدها في السيارة، ترى هل يفتحها ويعيث بها؟ سمعت فانيسا صوت الغلق باب السيارة بقوة. لا فائدة من الوقوف هنا، بل عليها ان تخرج للملاقاة خاصة انها بحاجة الى مساعدة... لا شك انه سيقدم يد المساعدة طبعاً بمزوجة بالسخرية، ولكنها اعتادت منه على ذلك.

هاذرت الغابة واخذت تعدو باتجاه السيارتين. كانت مستعدة لتحمل سخطه وتهكمه، ولكن لن تتحمل غضبه ابداً... رآته يستدير نحوها ويراقبها وهي تقترب. وما ان دنت منه حتى سمعت ما عكس لها طبيعة مزاجه.

قال بصوت غاضب أمر:

«ما تظنين نفسك فاعلة في هذا المكان؟»
جمدتها الصدمة في مكانها:
«ماذا؟»

«قلت: ما تظنين نفسك فاعلة هنا؟»

كانت عيناه مشتعلتين بالغضب... هذا الغضب الذي يؤثر كثيراً في فانيسا. فجأة انفجرت ضاحكة. لعل التوتر الزائد اطلق هذه الضحكة المستيرية التي سرعان ما تحولت الى دموع منسكبة على وجنتيها. امسك كال بذراعها وهزها بقوة:
«كفى!»

توقفت فجأة وكأنها اسيرة ذلك الصوت العميق الغاضب. ظل ممسكاً بها وهي تتسأل في نفسها عن ردة فعله لوقالت له: «انني احبك يا كال، فأرجوك ان لا تمسني... لانك لو فعلت فإنني اريد ان اعانقك طويلاً». ووقفت تنظر اليه شاحبة الوجه، وقلقة من جراء الافكار التي تحول في ذهنها. فجأة ارتجت عضلات وجهه واطلق سراحها قائلاً بهدوء:
«حسناً اعتذر لأنني صرخت فيك. لكن اسمعيني للحظات. لقد اختفيت دون ان تتناولي شيئاً على العشاء، ذهبت في سيارتك الى مكان لا يعلمه الا الله... ولساعتين كاملتين لم يبد اي اثر لك...»
ساعتان! كانت تحس انها امضت عدة دقائق فقط في الغابة، لكن نظرة سريعة الى ساعة يدها اكدت لها صدق كلامه.
نظرت اليه وقالت:

«انا استطيع ان اذهب في نزهة مسائية عندما اريد». ثم اضافت بهدوء
«لست ارى سبباً لكل هذا الغضب من قبلك!»
«الغضب؟ طبعاً غضيت. فقد اعتقدت انك هربت».
اتسعت حدقتها بفعل الصدمة... اما هو فقد نظر اليها بابتسامة سخرية واصل:

«لقد ذهبت وتحدثت الى لوري».

توقف قليلاً. وانتظرت فانيسا ممسكة بانفاسها لأنها تعرف ما سيحدث... ولا تستطيع فعل شيء لابقافه... وتابع قائلاً:
«سألته عما اذا كان يعرف مكانك، اذ لا فائدة من البحث عنك اذا ما

كنت تقضين اوقاتك معه. وكان من الواضح ان سؤاله صدمه وجعله يضطرب».

استدارت فانيسا بعيداً عن نظراته الحادة، الا انه وضع يده على ذراعها بلطف وقال:

«لقد حصلت على الحقيقة منه بشكل او بآخر. انك تخططين للرحيل...»

وصاحت بالمشوب بالغضب:

«مسكين لوري».

«لا تلوميه. فما كنت لأتركه دون ان يخبرني كل شيء...»

ردت بمرارة واضحة:

«لا شك عندي في ذلك ابدأ».

«صحيح. ولكنه لم يخبرني عن تكوينين. لم تكن هناك ضرورة، فقد عرفت لوحدي».

شعرت وكأنها ستغيب عن الوعي. نظرت اليه بتساؤل:

«هل يعرف هو ايضاً؟»

لم يكن من الضروري ان تذكر اسم جدها، فالأمر واضح تماماً لهما معاً.

«لا احد غيري يعرف الحقيقة».

«كيف... كيف عرفت؟»

خرجت كلماتها بصعوبة بالغة. وفجأة بدا لها العالم مكاناً مرعباً لا مجال للهروب منه، واحسست بالأرض تميد تحت قدميها وكان زلزالاً مدمراً ضربها. اما كال فقد كان هادئاً صامتاً ولا مبالياً. بدأت ترتجف رغماً عنها، فاضطر الى امساكها من ذراعها قائلاً:

«ادخلي الى سيارتي».

«كلا».

وحاولت ان تخلص ذراعها من يده، لكن قبضته الحديدية لم تمكنها من ذلك.

«هل... لن نظل هنا تحت هذا المطر. فانت مبللة تماماً. واذا ما اصبحت بالانفلونزا فلن يكون بإمكانك الرحيل الى اي مكان».

قادها نحو السيارة وفتح لها الباب، فألقت نفسها على المقعد منهوكة

القوى . استدار وجلس بالقرب منها، ثم ادار التدفئة الداخلية، فملا الهواء الساخن جو السيارة الباردة . اسندت فانيسا ظهرها الى مقعد السيارة واغمضت عينيها طلباً للراحة . قال شيئاً لم تسمعه لكنها احست بكومة اوراق بين يديها، فنظرت اليه وهو يقول:

«امسحي وجهك وشعرك . هيا افعل ما اطلبه منك الآن» .
لعل من الاسهل ان تنفذ اوامره بدلاً من الجدل اللامعدي .
قال وهو يراقبها:

«تسأليني كيف اكتشفت الحقيقة؟» .

كانت قد بدأت تنشف شعرها الطويل . طلب منها ان تخلع معطفها المبلل لان السيارة صارت دافئة . فعلت باذعان وانحني لمساعدتها في تخليص ذراعها ثم رمى المعطف على المقعد الخلفي .
تابع قائلاً:

«لقد خمنت ذلك . في البداية كنت غير مرتاح لشخصيتك . شعرت بوجود شيء غريب لم اعرف ما هو . . . الى ان كانت الليلة الماضية» .
لم تنبس فانيسا ببنت شفة، تركته يروي القصة كما يشاء . لم تعد مهتمة بشيء . . . فقد انتهى الامر .

«رايت الليلة الماضية صورة لابن اندرو ماكلين في بيت هيثر . فقد احضرت هيثر صندوقاً مليئاً بالبطاقات والخرائط والصور التي جمعتها منذ كانت طفلة . . . وبينما هي تقلب الاوراق شاهدت صورة لاندرو مع ابنه عندما كان طفلاً . لم اسأل عن سبب وجود هذه الصورة في الصندوق، بل اكتفيت باخفائها في سترتي» . ثم اضاف مداعباً «انا ماهر جداً في النشل اذا اردت ذلك . هل تريدان رؤية الصورة؟» .
«كلا» .

«يجب ان تريها . الشبه واضح بينكما . استغرب فقط كيف ان جدك لم يلحظ ذلك» .

استدارت اليه وقد طفق بها الكيل :

«حسناً . ماذا تريد ان تفعل الآن؟» .

«انا؟» . ضاقت عيناه وهو يقول «افعل؟ لا شيء» .

كبتت في فمها صرخة عالية، ثم قالت بهدوء :

«لا تعطيني هذا الجواب السخيف . الست مسروراً لاكتشافك هذا؟» .
ابتلعت ريقها بصعوبة مصممة على ان لا تضعف امامه :
«اليس هذا ما كنت تنتظره؟ حسناً، اذهب واخبره . فالامر لم يعد يهمني ابداً» .

قال بهدوء :

«اعتقد ان عليك اخباره بنفسك . اما الآن فساعدوك الى البيت قبل ان تصابي بالبرد» .

«لكن سيأتي عالق» .

«اعرف ذلك» .

ادار محرك السيارة وهو يقول : «انت غير قادرة على القيادة الآن . وسأعود غداً مع لوري لاحضارها» .

انفجرت في وجهه في محاولة لتأخير العودة :

«انه يكرهك» .

بدا مندهشاً وهو يسأل :

«هل يكرهني فعلاً؟ هل اخبرك لماذا؟» .

«اجل» .

«ماذا قال؟» .

«لن اخبرك . بل لن اناقش اي شيء معك» .

«اذا اخبرك عن شقيقته فلا شك انه لون القصة قليلاً . لذلك سأحكي لك قصتي انا، وبعد ذلك انت حرة في تصديق الجانب الذي يعجبك .

واؤكد لك بأنني غير مهتم بما ستصدقين» .

اطفاً محرك السيارة وتابع قائلاً :

«القصة سهلة بحيث تبدو غير معقولة، لكنها الحقيقة كاملة . لقد اعجبت شقيقة لوري بي . صحيح انها فتاة لطيفة لكنني لم اعجب بها شخصياً، مما ادى الى غضبها مني وحقدتها عليّ لكونها مدللة ومغرورة .

لذلك اخبرت اخاها بأنني حاولت التحرش بها، فيما كان منه الا ان تصدى لي في احدى الليالي وحاول ضربي . لم اعرف آنذاك غضبه، ولكنني لسوء حظه اعرف الكثير من الجيدو . . . وهكذا واجهته وتغلبت عليه دون ان اؤذيه . فقط دافعت عن نفسي واجبرته على اخباري عن سبب غضبه . لم

بصدقني عندما اكدت له بانني لم اقترب من اخته ابداً. ولا شك ان كبرياءه انجرح لأنني اكتشفت فيها بعد انه بطل هار في الملاكمة في هذه المنطقة. وهذا ببساطة هو سبب عدم اعجابه بي. ويعد ذلك حزمت شقيقته حقائبها ورحلت الى اضواء المدينة في ابردين حيث يمكن ان تجد ما يناسبها. . وهنا تنتهي قصتي».

ادار محرك السيارة مجدداً، في حين ظلت فانيسا صامتة. لقد صدقت قصته. كما ان الحديث عن شقيقة لوري ساعدها للحظات على نسيان القصة الاساسية التي تدور حولها شخصياً. نظرت اليه وهو يقود السيارة في الممر الذي يوصل الى الطريق العام، فشعرت باضطراب شديد: كيف يمكن ان تحب وتكره الانسان ذاته في الوقت نفسه؟ يجب ان يكون الامر مستحيلاً، لكنها تحبه وتكرهه في آن واحد. قبعَت فانيسا في مقعدها منهكة، وألقت رأسها الى الخلف وهي تحس بجوع كبير. لقد وعددها كال بأنه لا ينوي اخبار احد عن حقيقة شخصيتها، وهي تميل الى تصديقه. وفجأة عادت الى ذهنها صورة الرسالة القابعة في غرفتها، وتذكرت ان عليها الرحيل في الصباح الباكر.

سألته بهدوء وتعاطف:

«هل يمكن ان تحضر سيارتي هذا المساء، فهي غير مغلقة؟».

«المنطقة آمنة هنا». ثم التفت اليها مبتسماً: «على كل سأحضرها الليلة، فلا تقلقي».

«شكراً لك».

ظل هناك شيء واحد، يجب ان تحصل على مفاتيح السيارة حتى تغادر البيت باكراً:

«وهل يمكن ان تترك لي المفاتيح في البهو عندما تعود، فقد اكون نائمة؟».

«كما ترغين، فأنا لن اضيعها».

لم تشأ ان تقول له انها لم تفكر في هذا الامر. . . وهكذا امضيا القسم الاخير من رحلة العودة صامتين.

اوقف كال السيارة امام الباب الامامي، وفتح الباب لفانيسا قائلاً: «هيا الى الداخل». سأطلب من السيدة بانكس ان تجهز لك العشاء بعد

ان ابلغ. . . السيد ماكلين بانك عدت بسلام. سأقول له ان سيارتك علقت في الوحل وانك حاولت اخراجها بنفسك».

راقبته وهما يصعدان الى البهو الداخلي. لا شك انه عني شيئاً عندما ختم كلامه بالقرب من السيارة قائلاً بنعومة واضحة:

«هذا كل ما سأقوله له. . اما الباقي فمن مسؤوليتك انت يا فانيسا». ودخلا معاً. عبرت فانيسا القاعة متمهلة باتجاه السلام. وكانت من التعب بحيث اضطرت للاستناد الى الجدار.

بذلت جهداً كبيراً في تبديل ملابسها والاستحمام واللجوء الى دفء السرير. لم تجرؤ على مباشرة حزم حقائبها خوفاً من ان تكشفها السيدة بانكس، لكنها ستفعل فور الانتهاء من عشاها. . . فهي بحاجة الى استجماع قوتها اذا ما ارادت الرحيل باكراً.

كان النعاس على وشك ان يغلبها عندما سمعت قرعاً على الباب. جلست في سريرها وقالت:

«ادخلي».

لم تكن السيدة بانكس، بل كان كال حاملاً صينية الطعام. فاجأها منظره فسحبت الغطاء الى كتفها ونظرت اليه باستنفاً وقلق.

«لا تضطربي. فأنا لا انظر اليك». ثم اضاف مبتسماً: «كادت السيدة بانكس ان تطردني من المطبخ لأنها مشغولة بصنع قالب من الكاتو، لذلك تبرعت باحضار الطعام بنفسي».

وضع الصينية على ركبتيها بعناية، ثم نظر اليها وكأنه يريد ان يقول شيئاً. . لكنه استدار واتجه نحو الباب. قال وهو يغادر الغرفة: «تصبحين على خير يا فانيسا».

«تصبح على خير ايضاً». ثم اضافت بعد ان اغلق الباب:

«وداعاً يا كال».

انتهى الامر. لن تراه مرة اخرى ابداً. تنهدت بعمق. . . وبدأت في تناول طعامها.

تأخر النوم في المحيى الى عينيها. . . وعندما جاء، كان متقطعاً ومضطرباً وملئاً بالاحلام والكوابيس المزعجة التي ايقظتها مرات عدة. نهضت من فراشها بعد ان اربعها كابوس رأت نفسها فيه ضائعة في غابة

كثيفة الاشجار وشخص غريب يلاحقها. لم تستطع ان ترى ملاحه، فقط ظلت تسمع صوتاً يتردد باستمرار:
«فانيسا .. فانيسا».

كان جو الكابوس مرعباً وخائفاً بحيث وجدت صعوبة في العودة الى النوم، لذلك تسللت من سريرها واقتربت من الساعة لتعرف الوقت بدون ان تضئ النور خوفاً من ان يراها احد. كانت حوالى الخامسة صباحاً، نظرت الى السرير الدافئ وغنت لو تعود اليه، لكنها تعرف ان النوم سيغلبها اذا فعلت وبالتالي ستفوتها فرصة الهرب. لذلك يجب ان تتحرك الآن.

كانت حقيبتها معدتين ومخبأتين في الحمام بانتظار الرحيل. عليها فقط ان ترتدي ملابسها وتأخذ مفاتيح سيارتها. .. وعرب. وطبعاً يجب ان لا تنسى ترك الرسالة على الصينية لتجدها السيدة باكس في الصباح. وبهذه بالغ ارتدت فستاناً تركته للرحلة عندما حزمت حقيبتها، ثم وضعت الرسالة على الصينية وقلبها يعتصر المأ من جراء احساس بالحزن العميق لأن الرسالة هي آخر خطوة في هذه الرحلة التيسية.

تسللت على رؤوس اصابعها وهي تحمل الحقيبتين، وعندما وصلت الى البهو الداخلي وضعت احداهما على الأرض لأخذ مفاتيحها الموضوعة على الطاولة. لقد صدق كال في كلامه، فهي هي المفاتيح موجودة في المكان المتفق عليه.

شهقت فانيسا بالدموع المكتومة وهي تفتح الباب. لم يحدث ابداً ان اغلق اهل البيت الباب الخارجي. وقد صدمتها هذه المسألة عندما وصلت الى دينستون هاوس، لكنها تشعر الآن بالارتياح لذلك. خرجت واغلقت الباب بهدوء، ثم حملت حقيبتها وسارت نحو موقف السيارات. في الخارج، صدمها الهواء البارد الرطب في حين كان الضباب يغطي العشب والاشجار والبيت كله. ارتجفت باضطراب وهي تلقي نظرة الوداع على البيت. فلقد كان نائماً مثل الناس الذين ينامون فيه.

استدارت وحشت خطاها نحو موقف السيارات. وخوفاً من ان يسمع احد وقع قدميها على حصى الممر، انتقلت للسير على العشب المجاور وظلت عليه حتى الامتار القليلة الاخيرة. لا شيء يتحرك في البيت، حتى

ستائر المطبخ ما زالت مغلقة والأضواء مطفأة.

وضعت حقيبتها في المقعد الأمامي واستدارت الى مقعد القيادة واغلقت الباب بهدوء ثم ادارت مفتاح المحرك. زار المحرك عدة مرات دون ان يتحرك. ويقلق شديد كررت المحاولة مرة اخرى، ولكن شيئاً لم يتغير. هل البرودة هي السبب؟ همست لنفسها بغضب:

«اللعة على هذا الخطء». هل كان من الضروري ان يحدث ذلك الآن؟ فتحت الغطاء وخرجت بهدوء لتفحص المحرك. حاولت جهداً الا تصدر اية اصوات. رفعت الغطاء والقت نظرة شاملة دون ان تدري فعلاً عما تبحث، باستثناء حدس يقول لها ان شيئاً ما غير طبيعي. انها تعرف بعض المعلومات العامة عن المحرك، وقد اكدت لها نظرتها العابرة ان كل شيء في مكانه.

كانت على وشك ان تعيد الغطاء الى مكانه عندما لاحظت ان احدى مضخات الوقود غير محكمة الربط، ولما تفحصتها وجدت المضخة الاخرى غير محكمة ايضاً مما زاد في شكوكها. ولما رفعت غطاء توزيع الوقود وجدت ان المضخة نفسها غير موجودة. وعرفت على الفور المسؤول عن هذه اللعبة القدرة. انه كال بالتأكيد. فقد جرب هذه اللعبة بعد احدى السهرات على سبيل المزاح، عندما اخفى المضخة من سيارتها بحيث اضطرت لمراقبته في سيارته عائدين الى البيت. قبلت المزحة في المرة الأولى، وضحكت كثيراً عندما اخبرها كال الحقيقة على العشاء في اليوم التالي. اما الآن فالمسألة تختلف، ولا شيء فيها يثير الضحك.

اغلقت الغطاء بهدوء وعلمت مسرعة الى البيت. وبما انه اخذ المضخة من سيارتها فستذهب اليه فوراً لاستعادتها منه، والارجح ان يكون محتفظاً بها في غرفته. لكن لماذا؟ قلبت هذا السؤال في ذهنها وهي تركض على العشب عائدة الى البيت الذي ودعته قبل قليل. كانت متزعجة جداً، وكلما اقتربت من البيت تحول حذرهما الى غضب شديد. فتحت الباب بسرعة ثم اغلقتها بشدة وركضت باتجاه السلام. كانت تحس بموجة عارمة من الضيق في صدرها وبالنار تشتعل في عينيها. كيف يمرؤ هذا الرجل العنيد على التصرف معها بهذا الشكل؟

وصلت الى غرفة نومه... ترددت لحظات قبل ان تفتح الباب وتدخل عليه بقوة. كان كال غارقاً في نومه ولم يظهر منه سوى شعره الأسود الفاحم، في حين امتدت يده اليمنى خارج الغطاء الدافئ. نظرت فانيسا اليه وهي تفكر في ما يجب ان تفعله الآن. ولم يستمر ترددها طويلاً، اذ انحنت اليه وهزته بعنف. استيقظ على الفور وفتح عينيه واسعاً وهو ينظر اليها باستغراب شديد. ثم قال بصوت ما زال ناعساً: «ما الأمر؟ ماذا جرى؟»

قالت بحزم:

«اين هي؟»

حاول ان يمسح عن وجهه اثار النعاس ثم جلس في مكانه ونظر الى الساعة صارخاً:

«يا الهي... هل تعرفين كم الساعة الآن؟»

«اجل. اين المضخة التي اخذتها من سيارتي؟»

تنهد بعمق وعلى وجهه تعابير الاعتراف باللعبة:

«اذن هذه هي المسألة؟»

«اجل. هذه هي».

شدت قبضتيها بقوة وجاهدت ل تمنع نفسها من ضربه، فالأمر لن يعود عليها بأية فائدة، ومن الاكيد انه سيرفض اعطاءها المضخة بعد ذلك. هدأت نفسها وقالت:

«ارجوك ان تعطيني اياها».

كان كال قد استيقظ تماماً الآن وجلس في السرير بشكل مريح. نظر اليها ثم هز رأسه وقال:

«لا...»

«ولماذا لا؟»

«لأنك ستهرين بعد ذلك».

قاطعته بغضب:

«وماذا يعينيك الأمر في اي حال؟»

«يعينني كثيراً. فانا لن اسمح لك بالهرب مثل...»

قاطعته مرة اخرى:

«اذهب الى الجحيم انت وافكارك».

ثم استدارت قليلاً في محاولة لكبت جماح غضبها المتزايد. وفجأة لمحت مفاتيح سيارة على الطاولة... انها مفاتيح سيارة الجاكوار... ودون ان تفكر بما تفعل اختطفت المفاتيح غير عابئة بأن ذلك قد يعتبر سرقة. ولماذا لا؟ فهو الذي اخطأ في الاساس. قالت:

«اذاً سأخذ سيارتك، فوداعاً، سأكتب لك في وقت لاحق لابلاغك عن المكان الذي ستجد فيه سيارتك».

استدارت وخرجت راكضة من الغرفة، ثم اسرعت في الممر نزولاً الى السلالم باتجاه القاعة وهي تدعو ربه ان لا ينهض كال ويلحقها. ركضت من الباب باتجاه الممر غير مهتمة بصوت الحصى المبعثرة تحت قدميها، فقد انتهى الأمر الآن.

اطلقت العنان لساقها مدفوعة بالخوف والياس. ليس هناك الكثير من الوقت. عليها أولاً ان تنقل حقيبتها من سيارتها الى الجاكوار. فسيارة كال قريبة من سيارتها والابواب كلها مشرعة، فقط عليها ان... وصلت الى الموقف واسرعت بفتح باب سيارتها وانحنت لترفع الحقيبتين عندما وقع عليها ظل شخص ما. رفعت عينيه لتجد كال واقفاً بالقرب منها وهو حافي القدمين.

تنفس بعمق وهو يقول:

«انك بالفعل قادرة على الهرب».

انتصبت واقفة وقد اسقطت من ذهنها كل شيء ما عدا الهرب من هذا الرجل. قالت وهي ترفع الحقيبتين:

«ابتعد عن طريقي فوراً».

«لا شك انك تمزحين. ضعي الحقيبتين وهيا الى البيت بهدوء. فقد انتهى زمن المرح والألعاب يا حبيبتى».

لم تنتبه الى الكلمة الأخيرة التي استعملها، فقد كان يشد على يديه القويتين اللتين انتزعتا الحقيبتين منها. وعند هذا الحد طفح الكيل معها واخذ صدرها يغلي كمرجل، وبلا وعي هجمت عليه بكلتا يديها، اما هو فقد ارخى الحقيبتين من يديه واطلق ضحكة مجلجلة ثم امسك بها وجدها

في مكانها.

«لقد حذرتك مما سيحدث لك اذا ما اقدمت على ضربي».

ولدهشتها البالغة لف حولها ذراعيه وعانقها. ويدا لفانيسا ان الزمن قد توقف وان الكون كف عن الدوران وانها لوحدهما في هذا العالم الواسع. وفجأة انتهى العناق وابتعدا عن بعضهما البعض... وسادت لغة العيون بينهما. كان وجه كال داكناً في ذلك المكان المعتم، اما وجه فانيسا فكان ساكناً وهادئاً. تكلم كال بهدوء خوفاً من ان يحطم السكينة المسيطرة، فقال:

«فانيسا... آه يا فانيسا. ماذا افعل بك الآن؟».

خرج صوتها مرتجفاً:

«دعني اذهب يا كال، دعني اذهب فوراً».

همس بنعومة فائقة:

«لا... ليس الآن... وليس فيها بعد... هيا ادخلي الى السيارة فانت ترنجفين».

لم تستطع مقاومته هذه المرة. جلس الى جانبها وادار جهاز تدفئة السيارة ثم وضع ذراعه حول كتفيها:

«لا تتشاجري معي يا فانيسا. فانا لا استطيع احتمال ذلك».

«لست افهم... لست افهم ما تقصد».

«نحن لا... انا اكرهك وانت تكرهني».

«لا. غير صحيح».

وتابع كلامه وهو يداعب خدها برفق:

«كنت قادرة دائماً على ازعاجي اكثر مما تتصورين... ولم ادرك السبب الا في الليلة التي اعتقدت انك هربت فيها... يا الله، لا يمكن ان تتصورني مشاعري عندما اخبرني لوري بهربك. واعتقدت فعلاً انك رحلت. وقتها عرفت... عرفت ماذا اشعر نحوك وعرفت ماذا تشعرين نحوي. فلا تحاولي النفي الآن».

«انت مجرد حيوان مخادع».

خرج صوتها ضعيفاً هامساً. لكنه وصل الى سمع كال، فضحك طويلاً.

«حيوان مخادع؟ يعجبني هذا الكلام. وفي الحقيقة انا لا ابالي بالأوصاف التي تتعطيني بها. لقد رأيت كل شيء في عينيك الليلة الماضية. ولا يمكنك اخفاء الواقع يا فانيسا».

ازدادت خفقات قلبها وهي تنظر مباشرة في عينيه. وعندما رأت مشاعر الحب فيهما مدت يدها لتلمس وجهه القاسي.

«آه يا كال. ارجوك ساعدني. انا هاربة من...».

الاعتراف قاس جداً، ولكن زمن الأكاذيب قد انتهى. لم تعد قادرة على اختلاق القصص، على الأقل ليس الآن وليس معه بالتحديد. تابعت كلامها قائلة:

«جئت الى هنا لاعرف جدي على حقيقته. فبعد الذي اخبرني به والذي كرهت جدي، واثبت لاني عرفت انه يبحث عن حفيده. وكنت سأجعله يحبني ثم... ثم ارحل وأتركه وحيداً».

«لا ترحلي. لست مضطرة».

همست بحدة:

«بلى، يجب ان ارحل. لانني اكره نفسي يجب ان ارحل. وانت ستكرهني ايضاً بعد ان انتهي من رواية قصتي. لقد التقيت جدي وبدأت احبه...».

قطعت كلامها فجأة واغرقت رأسها بين كفيها عندما داهمتها الدموع المنهمرة. احست بيد كال تمتد الى رقبتها وتلامسها بلطف ومحبة. لم تعد تستطيع الاحتمال، وبحركة غريزية استدارت ودفنت رأسها في صدره. في حين احتضنها هو بذراعيه وراح يدهدها كطفل صغير.

«لا تبكي يا حبيبتي. ارجوك لا تبكي».

«لا استطيع... لا استطيع».

«اسمعي يا فانيسا». ولكنه قبل ان يكمل اخذ نفساً عميقاً وصمت للحظات بحيث توقفت فانيسا عن النحيب:

«اسمعي. انه بحاجة اليك. الا تلاحظين ذلك. انه بحاجة ماسة الى وجودك. وهربك من حياته عمل قاس للغاية. انت ستظلين هنا حتى لو اضطررت الى استعمال القوة. ستبقين هنا وسرى جلدك سوياً ونخبره الحقيقة».

ردت بصوت تخفقه العبرات :

«لا» .

«بلى . انا احبك ايها المجنونة ولن اتركك ترحلين الآن» .

فاجأتها العبارة ، فأبعدت رأسها عن صدره وقالت :

«ماذا؟» .

«قلت انني احبك . فهل انت عمياء بحيث لا ترين مشاعر الحب في

عيني؟» .

«انت . . ! ولكن ماذا عن هيثر؟» .

«هيثر؟ لقد حولتني الى مجنون في غضون ستة اشهر فقط . فهي لا تهتم

بشيء الا بنفسها وتظهرها الخارجي . انها تصلح للقاءات موسمية فقط ،

اما انت يا جميلتي فتستطيعين تجاوزها في كل شيء حتى بدون ان تحاولي» .

ولم تمر فانيسا جواباً بالرغم من عشرات الافكار التي تراودها الآن .

«وهكذا . . .» تابع كلامه وهو يحكم ذراعه حول كتفيها وكأنه يطمئن

الى انها لن تهرب مرة اخرى «انت لن ترحلي عني بعد اليوم ، الا اذا اردت

ان الحق بك اينما كنت» .

«لا . عرفت انني احبك مساء امس على العشاء» .

ابتسمت وهي تتذكر المناسبة و اضافت تقول :

«وبالتحديد عندما تناولنا الحساء . نظرت اليك وقتها و . . . صعقتني

الشعور بشكل مفاجئ» .

«يا الهي . هل هذا هو السبب في انقطاع شهيتك عن الأكل؟» تابع

ضاحكاً «اهذا هو التأثير الذي أتركه عليك؟» .

اتسعت ابتسامتها وهي تقول :

«اعتقد ذلك» ثم اضافت بنعومة «آه يا كال . لماذا حدث هذا ،

وكيف؟» .

لم يكن بحاجة لسؤالها عما تقصد :

«لأن بعض الأشياء ، يا صغيرتي المجنونة ، تحدث هكذا . هل تذكرين

يوم دخلت المكتبة وعرفت ان لوري عانقك؟ حسناً ، لقد جاهدت نفسي

كثيراً كي لا اهتم عليه . لم استطع ان افهم سبب غضبي . . . لعلني كنت

غيبياً؟ ثم اخذ هذا الشعور ينمو ويزداد وانا احاول طرده لانني كنت اعرف

انك مزورة اذا صح التعبير . كان الشك يكبر يوماً بعد يوم دون ان افهم
السبب ، وكانت تنمو معه رغبتني في احتضانك والبقاء الى جانبك . والحقيقة
انني كدت افعل ذلك في احد دروس الجيدو . وكم كنت وقتها بحاجة الى
السيطرة على النفس التي تبنيها رياضة الجيدو» .

سالت بنعومة :

«لقد كنت قاسية معك ، اليس كذلك؟» .

«كيف يمكن ان اوافق على ذلك؟ اعتقد انني كنت فقط معك يا عزيزتي .

على كل انتهى الأمر ، اعني اننا نعرف حقيقة مشاعرنا . آه ايها الحبيبة

فانيسا . كم انا سعيد لانني اخفيت المضخة من سيارتك!» .

«صحيح . على فكرة اين وضعتها؟» .

سألته بلهجة أمرة ، لكن عينيها لم تلتصع بالغضب هذه المرة .

«انها مخبأة في صندوق صغير موضوع في مكان ما هنا بحيث لا يمكنك

اكتشافه مهما بحثت . فقد انتابني احساس بأنك ستحاولين الهرب ، وانا لم

اتوقع ان تفتحني غرفتي . يا لك من امرأة عصبية جداً» .

همست بحياء :

«انا آسفة يا حبيبي» .

«يجب ان تغيري تصرفاتك ، فأنا لا اقبل مثل هذا الموقف من زوجتي» .

«ماذا؟» .

«هل هذا كل ما عندك لقوله؟» .

«اجل . . . وحتى استعيد انفاسي المتقطعة . لست متأكدة مما

سمعت!» .

نظر الى ساعته وقال :

«تعال يا حبيبي . انها السادسة تقريباً . ما رأيك لو نتسلل الى المطبخ

ونرتشف بعض القهوة المنعشة ، فالسيدة بانكس لن تستيقظ قبل

السابعة؟» .

«لا بأس» .

ولكنها ارادت ان تضيف شيئاً اخر ، الآن وقبل ان يغادرا السيارة .

«كال . . .» .

«نعم!» .

«ارغب برؤية جدي على انفراد. ارجوك، فأنا اريد ابلاغه الأمر
بنفسي».

«هل انت متأكدة».

«نعم. يجب ان اخبره بنفسي. اظنك تفهم الوضع!».
ابتسم لها وهما يسيران عائدين الى البيت. كانت عيناه ووجهه وكل
ملامحه تنطق بالحب العميق:

«انا افهم موقفك تماماً يا حبيبتى. لكنني سوف انتظر. لا تضطربي،
يكفي ان تجربيه بطريقتك الجميلة الطيبة، وسيفهم على الفور».

«اتمنى ذلك».

اغلقت عينها برهة ثم تابعت:
«لقد تركت له رسالة مع ان الكتابة كانت صعبة. اما الآن، فأنا سعيدة
لأنك منعنتي من الرحيل... لا يمكن ان تتصور كم انا سعيدة!».
وضع ذراعه على كتفها بحنان، ثم اشار الى الأفق قائلاً:

«هل ترين تلك التلة البعيدة؟».

نظرت فانيسا الى البعيد فشاهدت تلة كبيرة تكسوها الثلوج. اما هو
فتابع يقول:

«سأظل احبك ما دامت الثلوج موجودة على قمة التلة».

ابتسمت بدلال وقالت:

«انها لا تذوب ابداً... انها هناك الى الأبد».

«اجل... ان حبي لا ينتهي ابداً».

وضمها بين ذراعيه وغابا في عناق طويل.